
@ketab_n
ketab.me
رواية
الرواق للنشر و التوزيع
عبد الله البركاتي
جذع تنّون
Twitter: @a_albrkati
12.10.2012

جذع تنون
رواية

عبد الله البركاتي



جذع تتون
رواية

جذع تنون
رواية
عبد الله البركاتي

الطبعة الأولى 2012
الرواق للنشر والتوزيع

3 شارع إدريس - أول شارع الوحدة - إمبابة - الجيزة
هاتف وفاكس : 33100951 (202)
محمول : 0147379183
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing
المدير العام: هاني عبد الله

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
تصحيح لغوي: سارة سرحان
رقم الإيداع: 17426 /2011
الترقيم الدولي: 4 - 10 - 5153 - 977 - 978

آهٍ علَى قريةٍ في جذع تنون
غطّاهَا الليلُ وعمّها السُكونْ

عبدالله البركاتي ١٤٢٢هـ


Twitter: ketab_n

إهداء

إلى أمي الصبورة..

عسى أن تكون هذه الوريقات مؤنسة لك بغربتي..

إلى أبي الرائع..

أطمح دومًا أن أكون الرجل الذي تريد.. وباسمًا مثلك..

إلى إخوتي..

علاء الطيب.. هيفاء البشوشة.. ولاء الحنونة..



اسم الرواية وبعض من أحداثها مشتقة من قصيدة "جذع تنون".

قد صافحت طقوس الأسى.. وعانقت جوانحه

تعلقت بمعصمه وبساعده.. وتوشحت تلكم العتمة

لم يكن الفأل لها سبيل..

لم تحاول.. لتفلح

ولن تفلح لشؤمها

هي قوية وضعيفة.. ضعيفة

قويه بعنادها.. وضعيفة في حالها

لم تكن هكذا.. ولكن هي الأيام كفيلة بنحت الصخور

وحفر القبور.. وطمسها

لم تعد تحسب الأيام.. بل الأيام هي من تزورها وتؤنسها

بدأت أشك أنَّ أيام الأسبوع قد تناثرت وفقًا لجدولها

فالكل يحاول مؤانستها.. لكن.. لا جدوى!!

ذلك الكرسي المتحرك في آخر الصالة الأرضية.. وذاك المصباح المتدلي من السقف المائل

وهذه المنضدة العتيقة.. والمرآة المكسورة والكتب المتناثرة في غرفة المعيشة

وحتى السواك البالي!!

كانت لهم لغة.. وأعظم لغة

يملكون لغة الخدمة، لغة المساعدة، لغة المؤانسة

لم تعش لودس وحيدة..

بل عاشت وسط أهل مفقودين، في رحاب منزل واسع رحيب

حجرات كثيرة..

طابقين بارتفاع شاهق..

حديقة أمامية موحشة وأخرى خلفية أشد وحشة.

منازل صغيرة تابعة لا استخدام لها.

كان الأجمل والأروع ومحط الأنظار في زمن مضى

هو قصر متوارث لهذه العائلة..

لم يكتب الشقاء لهذه السلالة إلا في هذا العصر..

إنها السنين العجاف.. سنين القحط والفقر والجوع..

إنه منتصف السبعمائة بعد الألف من الميلاد.

*****

كان أومود نحاتًا رائعًا.. وما زال..

فقد كان من أشهر نحاتي جذع تنون.. بل هو أشهرهم على الإطلاق

ربما لجاه تنون الكبير دور في بروز أومود، ومنافقة الناس لهم أيضًا.

ولكن جنبات القصر تقسم ببراعته.. فلا يكاد ركن إلا وقد احتضن رائعة من روائع أومود..

لم تكن الأسينات كما يحلو لأومود تسميتها.. للبيع

بل كان من يحظى بشرف اقتناء قطعة أسين فرحة لا تعادلها فرحة.

ليس لذات المنحوتة رغم روعتها.. ولكن لأبعادها الأخرى..

فقليل من حظي بهدية من أومود مذيلة بتوقيع وإهداء.. فحتى الأغنياء يتمنون ذلك الشرف!!

فليس المال هو كل شيء.. بل باجتماعه مع الجاه، هكذا تكون ملكت نصف الأرض..

وعند اجتماع المال مع السياسة فهذا يعني امتلاك كل ثروات الأرض..

ومن يدب عليها أيضًا..

تمامًا كما هو الحال مع آل تنون.. فهم يملكون الناس وأملاكهم!

لهم قواعد وقوانين يتوارثونها تحيطها السرية ولا تُعلن أبدًا..

قواعدهم كانت كفيلة بحفظ مكانتهم لعقود من الزمن..

كثيرة هي أوراق ذلك الدستور.. ومملة لغيرهم ربما.

نصائح.. مقولات.. وأوامر مباشرة..

"استعبدهم واستفد من قدراتهم، والق على عواتقهم أكبر مما يتحملون، ثم ادعهم إلى وليمة فاخرة، وأبنائهم إلى قليل من الحلوى، فلن ينظر أحد إلى أريكتك المذهبة بل ستكون أنت الكريم المنقذ"..

"لا تلقِ إلا الأوامر المفرحة ودع المخزية لغيرك، ووبخهم أمام الجميع إذاَ استاء الناس، وكررها مئات المرات ولا تخف.. فإن الناس تعشق النسيان"..

"لا تتصدق في السر أبدًا"..

"مال العائلة ليس للصرف.. بل هو للتوارث فقط، والناس هي من تشتري الماسَ زوجتَك.. وهم سعداء"..

"نساء المتعة أبدًا ليسوا كنساء الولادة والتربية.. فاحذر!!"

ربما هي مقتطفات من هوامش الدستور الكثيرة.. ولكن تدل على ذكاء تنون الأول.

*****

لم يكن لأومود أصدقاء سوى الأسينات، ولم يكن له حب أيضًا..

لم يكن للنساء حظوة عنده كأخويه هتون وكنده..

كان متيمًا بصدارة المجالس وإقامة الحفلات الفارهة على شرفه.. حتى بدون مناسبة..

هو مثال حي للعز والرفاهية في أعين الناس وفي داخل القصر هو النقيض..

في داخل القصر أو في أسفله يعيش أومود في مرآبه الصغير..

بين كومة سكاكين ومطارق وقطع من الخشب.. ويوم مشئوم..

لا يعلم سببًا لتكدره بالثلاثاء من كل أسبوع..

هو موعد ثابت للحزن في القصر منذ ميلاده!!

نازك تحاول دائمًا التقرب منه.. لم تفلح دومًا..

فلا مكانة لها في قلبه أبدًا، هي مجرد أنثى ولود ومربية أطفال لا ترتقي لمرتبة زوجة..

فهي ليست من الطبقة المخملية أبدًا بل هي من عائلة قارمان الكادحة.

انتُقيت نازك بعناية وبوصاية مباشرة من تنون الكبير..

فعائلة قارمان امتازوا بالقوة والجمال والذكاء أيضًا..

لم تكن نازك متيمة بأومود كسائر بنات جيلها.. فهي من عائلة ليس لديها الوقت حتى للحب..

ولكنها أغرمت به بعد عقد الشراء المدون في الوثائق الرسمية باسم الزواج..

فهم يشترون أمهات أبنائهم ويحبون عاهراتهم..

لم تكن معاملة أومود لها جافية أو قاسية فلم تكن هناك معاملة في الأصل..

كانت كأحد المجسمات والثريات المتناثرة في أرجاء القصر..

لا يبالي بها أبدًا، عدا الأسينات فهي تعني له كل شيء..

برغم ذلك فإن نازك أحبته حبًا جمًا.. فقد هوت كفة الكرامة في ميزان الحب.

*****

١٧٥١ من الميلاد.. تاريخٌ لا يُنسى!!

كيف ينسى وهو العام الذي جمع بين وفاة تنون الكبير..

وخرق أولى قوانين العائلة المقدسة؟!!

كان بداية الهاوية..

ففي الثالث عشر من شباط شهدت جذع تنون أكبر وأعظم مراسم تأبين شهدته هذه البلدة..

فكانت المراسم أشبه بالاحتفال، كيف لا.. وأطنان الورود جلبت من كل مكان..

تابوت صغير مكسو بالورد.. من القصر إلى مقبرة العائلة مفروش بالأزهار..

ضريح بارتفاع عشرة أقدام مكسو بالحلل وبه شرفة شمالية لخدمته طوال فترة موته..

تابوت.. طريق.. ضريح.. هي ما كانت زاهية بالألوان فقط..

صفوف طويلة وجموع غفيره توشحوا بالسواد وغمرهم الحزن..

إنه تنون الكبير..

بعد مُضِيْ أربعين ليلة من الحزن ها هي جذع تنون تعود إلى الفرح..

وهذه المرة في مراسم تنصيب أومود عميدًا لآل تنون..

كل الساحات اكتست بالألوان الزاهية والحلي وأقيمت الموائد لأربعة أيام متتالية..

انتظر الناس لحظة استلام أومود لأوراق العمودية الروتينية أمام الملأ..

فهذه اللحظة توزع الهدايا الفاخرة على الحاضرين وهي مهمة تكفلت بها عائلة بارلاس الثرية منذ عقود.

استلم أومود الدستور والناس فرحين.. يا لهم من مغفلين!!

عادت الأيام كما كانت.. فقد أتقن الناس أدوارهم في مسرحية تنون الأول الكبرى.

*****

في نفس العام وفي السابع والعشرون من تموز..

شهدت هذه الليلة وفي الثامنة مساءً أولى قطرات الخير..

استبشر الناس مع أول قطرة من الغيث المنتظر.. فلم تمطر السماء منذ فترة..

كانت سقيا رحمةً ونعمة، إلى أن بدأ تزايد المطر على غير المعتاد، في كل ساعة يزداد المطر..

بدأ يتحول إلى جحيم منتظر..

لم يتوقف.. بل بدأت في صحبته صواعق أصابت المزارع في أطراف البلدة..

ظلت الأمطار تُصب صبًا، و لم تكن وحدها من دمرت أسقف البيوت.. بل للعواصف المصاحبة دور كبير.

ازداد الهرع والخوف بين الناس.. فالموت بانتظارهم إن لم ينفذوا بجلودهم من وقع العذاب..

ها هي الساعة الثانية من ظهر اليوم التالي والأمطار ما زالت تنهمر ولكنها بدأت في التوقف تدريجيًّا..

لم ينجُ القصر من آثار التخريب.. ولكنها أخف وطئًا من بقية البيوت المنتشرة في أرجاء البلدة..

فاختلاف نوع التشييد والمواد والمستخدمة.. ولموقع القصر الإستراتيجي دور كبير في بقائه شامخًا.

الساعة الثالثة والنصف.. توقف المطر..

لم يبق إلا صوت القطرات المتساقطة من السقف على الآنية المنتشرة في جنبات القصر..

قرر أومود المغامرة والخروج من القصر.. لا لسببٍ معين ولكنه الفضول..

أول صدمة كانت عند خروجه من القصر.. وقعت عينه على إحدى منازل الخدم التابعة للقصر..

سقطت نافذته أرضًا، صدوع في مظهره الخارجي والمياه تحيط به، وربما تسللت وبللت بعض أثاثه.

تأثر أومود كثيرًا..

الخادم المسكين!!

أكمل مسيره.. جُمع كل خدم القصر لإزاحة جذوع الشجر المتساقطة في طريق العربات..

في طريق النزول من ربوة القصر إلى جذع تنون.. منظر البلدة ليس كالمعتاد..

لم يسترعِ اهتمامه.. فباله مشغول بذلك الخادم المسكين المتضرر..

وصل إلى البلدة..

لسانه شل عن الكلام، عيناه شخُصتا، رأسه الصغير توقف عن العمل مؤقتًا..

قلبه لا يعلم ماذا يعمل في هذه المواقف.. أيضرب عن العمل أم ينبض بسرعة البرق؟!!

بيوت خربة، وأخرى مهدمة تمامًا، شوارع جذع تنون تحولت إلى انهار تحمل الكثير من الجثث..

قد هرب من هرب، وهلك الآخرون.. ولم ينج إلا القليل.

وجوه الناجين ليس بها أي ملامح، قلوبهم ليس بها أي مشاعر، لا حديث، لا حركة.. استعداد للموت وفقط..

لا أحد يعلم ما حدث وما سيحدث، الجميع في حالة ترقب..

بعد برهة وليست بقليلة بدأ أومود باستعادة وعيه تدريجيًا، بدأ يدرك تمامًا حجم المأساة.

عاد إلى القصر..

لم يعد إلى أريكته للراحة، بل اتجه نحو الغرفة المقابلة..

مكتب صغير ولا كراسي للاستقبال، رفان صغيران بهما كتب عن تاريخ العائلة وأوراق دستورهم المقدس..

كان مكان الخلوة لعمداء العائلة السابقين.. ومكتب القرارات الحاسمة..

بدأ أومود بالتفكير عميقًا..

كرسي مائل يوشك على السقوط، رِجلان تعلو إحداهما الأخرى على المكتب الصغير، ضوء خافت..

لا وقت لقراءة كومة الأوراق..

منذ لحظة دخوله إلى تلك الغرفة حتى تأهب الجميع بانتظار الجديد من القرارات..

نصف يوم أو يوم كامل هي مدة الخلوة الطبيعية لتنون الكبير ومن سبقه..

عشرون دقيقة فقط وفتح الباب!

وسط دهشة الجميع وترقب أعلن قراره الأول..

"أخرجوا من كنوز القصر ما يكفي لإعادة بناء بيوت المدينة الخربة"..

هنا كانت حماقته الأولى.. وخرق أولى القوانين.

أراد الظهور بدور المنقذ.. كما كان الحال دومًا مع تنون الكبير..

استغرب الجميع.. فكنوز القصر لم يُصرف منها أبدًا.. كانت تتزايد ولا تنقص..

لا يملك الجميع سوى الطاعة ولكن عزاؤهم الوحيد حكمة أومود..

لم يكلف نفسه بالنظر إلى الدستور الذي كفل للعائلة مجدها..

لم يقرأ مقولة تنون الأول: "ابق حيث يبقى الناس.. فهم عزك الحقيقي، وإن رحلوا فكن أول الراحلين.. وكن سيدهم في مهبطهم الجديد"..

و لم يقرأ أيضًا: "مال العائلة ليس للصرف.. بل هو للتوارث فقط، والناس هي من تشتري الماس زوجتك.. وهم سعداء"..

ولو قرأ تاريخ العائلة أيضًا لوجد أن جذع تنون ليست هي منشأ العائلة..

بل كانوا يقطنون بجبل سدر إلى عهد دوندار جدهم السابع..

حيث أمر العائلة بالهجرة إلى جذع تنون بعد حادثة بركان سدر الشهيرة.

فُتحت الخزائن وبدأ التنفيذ تحت إشرافه المباشر..

بدأت الخزائن بتناقص مخيف.. صرف بلا حساب..

كان اعتراض هتون شديدًا على أومود، وكان كنده كعادته تابعًا لهتون..

الوضع لا يحتمل البلبلة..

حملت العربات بالمؤن والذهب لترضية الأخوين وهاجرا..

وهنا أيضًا تستمر الحماقات وخرق القوانين.

*****

رُممت جل البيوت.. المسكونة منها والمهجورة، ولم يَعُد الناس!

كيف يعودون ولا مقومات للحياة، فلا مزارع صالحة ولا مصانع أيضًا..

كل المقومات مفقودة، لا شيء يغري بالعودة سوى بيوت مرممة، قابلة للهدم مرة أخرى.. مع أمطار قادمة ربما..

ثروات القصر بدأت بالتناقص، مخزوناته بدأت بالنفاذ، الخدم بدأوا بالتسرب..

الهلاك قريب في أعين الخدم، سرق من سرق.. نهب من نهب.. وهرب من هرب..

كانت نظرة أومود عكس كل من حوله.. فكانت نظرته تفاؤلية.. ومتعالية أيضًا.

لم يفكر في استدراك الأمر لأنه لا يشعر أنه أخطأ، ما زال ينظر أنه أومود..

كان من حوله يفكرون إلى ماذا سيؤول بهم الحال بعد فترة..

وهو لا يزال ينتظر عودة الناس بالغنائم والشكر والعرفان له..

بدأ بإعداد سيناريوهات احتفالات المجد الجديد.. الذي لم يعد..

اعتزل الجميع وعاد إلى مرآبه الصغير المغمور بالمياه.. لم يغيره، فقد أصيب بهوس النحت وسط الماء..

بات إصدار الأوامر في القصر من قبل نازك حدثًا غير مسبوق..

فلم يكن للزوجات في العهود السابقة قرار حتى في ألوان زينتهم.. لكنها تكلمت بلسانه الصامت هنا..

كانت صاحبة هذا السر.. وابنيها فقط.

أبناء تعساء..

عاشوا تائهين بين أم تعلمهم مهن الحياة المختلفة، وبين أب تائه في ماضٍ لن يعود ربما..

سرَّحت نازك نصف الخدم ووزعت الباقين على المزارع والحظائر التابعة للقصر..

لم تُبقِ وصيفة للأبناء، ولا حتى طاهٍ للطعام.. فقد تكفلت بشؤون القصر كلها..

الأيام كانت كفيلة بتدرج عيش أومود كأسرة عادية.

اقترب كثيرًا من نازك.. ومن سلاف وأوزكان أبنائه..

سلاف وأوزكان اللذان جلبهما سوء الحظ إلى هذه الدنيا في هذا التوقيت، فالكبير لا يتجاوز الثالثة من العمر..

ربما الفرح الوحيد من هذا الوضع هي نازك فقد نالت ما تتمنى..

دارت الأيام..

لم يبق في القصر سوى أومود وزوجته وابنيه سلاف صاحب الثمانية أعوام وأوزكان ذو الستة أعوام..

وميدون خادم القصر العجوز أيضًا..

تكَفَّل ملاك المزارع المحيطة الحاليين وخدم القصر السابقين بمئونة القصر كاملة للخمس السنوات السابقة..

رغم أنها سنين عجاف؛ شح المياه.. المحاصيل.. حالة الفقر عامة..

عاش آل تنون حياة رتيبة.

*****

الخامس من حزيران من العام ١٧٦١.. هو ميعاد هدية الكون..

استيقظ أومود على صوت البشارة، ها قد أتت بعد طول انتظار..

أتت لودس..

جاءت بعد ولادات عسيرة استمرت ثلاثة أعوام..

فمنذ خمس أعوام وحلم أومود برجوع الثروة والجاه بعد ولادة أول ابنة له يتكرر..

انتظر أومود قدوم لودس بفارغ الصبر.. وها هو قد نال..

جاءت في يوم مطير –يا للفأل الجيد–

جاءت بوجه مشرق وقدمين ضامرتين وبثور متفرقة في أنحاء الجسم..

كل الحكماء أكَّدوا أنها لن تكمل أسبوعها الثاني..

نازك لم تقتنع بكلامهم، فكانت ترى فيها عروسًا في ثوبها الأبيض..

وقف أومود مكتوف اليدين منتظرًا لحظة وفاتها، فكل الحكماء أجمعوا على ذلك..

وكانت نازك ترتب وتجهز غرفة لودس.. حتى أنها بدأت في حياكة بعض ملابسها..

اليوم الأول.. الثاني.. الثالث، الأسبوع الأول.. والثاني.. والثالث..

قلب الأم انتصر على خبرة الأطباء..

فقد عاشت لودس.

كانت لودس فأل خير للبلدة بأسرها ليس فقط لآل تنون..

فقد كانت الأيام مليئة بالأخبار السارة، وعادت الأمطار منذ ولادتها..

كان دوام الأطباء صباحًا في المشفى ومساءً في القصر..

أشهُرها الأولى كانت حرجة جدًا ولكن صحتها تتحسن بشكل ملحوظ..

عدا ساقيها.. حيث أكد الأطباء أنها لن تستطيع المشي، إن لم تتحسن عضلاتها مع عمليات التقوية..

لم يَصْدُق منام أومود.. فها هو شهر لودس الثامن ولا بوادر لثروة أو جاه..

ولكن قد نزلت عليه أكثر من الثروة والجاه.. نزلت عليه السعادة بأسرها.

رغم المعاناة مع مرضها كانت بشوشة خفيفة الظل، أحبها كل من رآها، جلبت الحظ لكل من قبلها..

أصبحت لودس مزار المتكدرين وغرفتها هي ملتقى العائلة الدائم..

ففي تلك الغرفة الصغيرة أصبح ملتقى العائلة الودي..

تلك الغرفة التي غلب لون أرضيتها الخشبية لون أثاثها المتبعثر في جنبات الغرفة، حضنت كثيرًا من تلك الليالي الصافية وكثيرًا من الأيام الرائعة..

كانت لودس في خلواتها بمثابة الأب للعائلة.. فالكل يقتنص فرصة الوحدة بها لكي يبوح بما في جوفه ويعترف بكل ذنوبه.

لم تعِ سوداوية العالم ولم ترَ الظلم والجور، فهي طفلة القلب والملامحَ.. ترى الكل بنظرة محب، وتغرقهم بابتسامة بريئة بادلوها بها تظاهرًا..

كانت تنصت إلى اعترافاتهم بعمق وباهتمام وتبادلهم الابتسامة.. فهي لا تعِ ما يقال، فهي لم تتجاوز السنتين..

ربما عشق لودس لحديقة القصر المبعثرة هو عشق متوارث فطالما كانت نازك متيمة بذات الحديقة..

ولكن شتان بين ذات الحديقة بين الماضي وبين حالها الآن..

رغم إنها حديقة خربة إلا أن بها الكثير من المتعة..

فالجذوع المحطمة والأغصان اليابسة كانت واحة جميلة للعبث، والأعشاب الطويلة هي مكان رائع للاختباء.

أكثر ما يحزنها هو حلول الليل.. حيث كان سلاف يقتادها إلى غرفتها.. مفرقًا بينها وبين الكولستان، وغالبًا ما يحتاج تدخلاً من أومود لحمل الصغيرة عندما لا تقوى الوقوف طويلاً..

تُحمل يوميًا على الأعناق ذهابًا وإيابًا، ونادرًا ما تتسلل حبوا إلى الكولستان في غير الأوقات المعتادة..

رغم حب أومود لطفلته إلا أنه يتذمر دومًا من حملها باستمرار من مكان لآخر..

أومود هذا الشخص الغريب الأطوار، والمحايد تمامًا في كل شيء حتى في مشاعره..

فهو غالبًا لا يهتم إلا بنفسه فقط، يكاد لا يتعامل مع غيره بتاتًا، ربما كانت لودس استثناءً..

حتى في المسميات كان غريبًا أيضًا؛ فكان يسمي منحوتاته أسينات وفويتان على كومة القش..

الكولستان هي تسمية أطلقها أومود على الحديقة الخربة أيضًا.

*****

أربع سنوات مضت منذ الثاني عشر من كانون الأول.. إنه العام ١٧٧١ من الميلاد..

إنها الأربع سنوات التي كان معظم وقت أومود مشغولاً بأسينته الجديدة التي طالما اعتقد أنها الأعظم..

لم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب من القبو للتحذيرات الشديدة من لدن الأب..

كانت الطلبات مجابة فورًا من أخشاب ومطارق وماء نقي وآخر شائب، كانت توضع في منتصف المنحدر المؤدي إلى القبو..

هذا هو أقصى درجات الاقتراب، حتى لودس كانت ممنوعة من الاقتراب أيضًا.

كانت أربع سنين قاسية على الجميع ولكن في الثامن والعشرين من ذات الشهر انتهت..

فلقد مات أومود..

مات مرهَقًا ومرهِقًا مَنْ حوله في فهمه..

مات أومود و لم تكن له جنازة تلحقها الآلاف من الجثث المتحركة والأرواح السخيفة المؤبنة والبعض من البشر للمواساة..

مات و لم تقم له النصب كسابقيه من رموز آل تنون..

مات وكان في جنازته زوجته وأبناؤه الثلاثة وخادمهم العجوز والقليل من الفلاحين..

ولكن كان تشييعه بحب، وتم إقامة ضريحه المتواضع في الكولستان تمامًا كما اتفق مع طفلته يومًا ما.

تسع وستون يومًا كانت كفيلة بإزالة الحظر على القبو.. فكان ميدون الخادم العجوز أول من تسلل إليه..

بدأ بنفض الغبار الذي بدا كأنه يكسوه لعشرات السنين، أتبعها بتنظيف الأرضيات المتسخة والمبتلة..

بعدها عاد إلى عادته اليومية بإيصال القهوة المرة والكعك المخبوز إلى القبو ولكن هذه المرات كان يوصلها للا أحد..

كان أومود يخفي كل أسراره في القبو ولم يتجرأ أحد بلمس المقتنيات حتى بعد وفاته..

فاحترام عميد الأسرة باقٍ للأبد، وحفظ أسراره هو من حقوقه المشروعة لمدى الدهر..

كرهت نازك أن تسير على خطى العائلة في السلطة والنفوذ الواهية وبدأت في إرسال أوزكان إلى المزارع المجاورة بعد رفض سلاف ذو التسعة عشر ربيعًا.. هذا الذي ورث الكثير من كبرياء أجداده..

لم يكن أومود وسلاف متشابهين إطلاقًا رغم امتلاكهم لحدة الطباع ونفس الاهتمامات ظاهريًّا..

بدأ في استخدام قبو أبيه؛ مطارقه.. أخشابه.. حجارته.. وتلك المعاول أيضًا..

لكن لم يكن نحاتًا إطلاقًا فكان يحب الصناعة لا الفن.

أوزكان بدا أكثر نباهةً من سلاف رغم إنه يصغره بعامين.. فلم يتذمر من أوامر أمه الصارمة بل كان يدنو لرغبات الجميع بسياسة محكمة وينفذ ما يريده هو..

هو الأكثر سعادة بتواجده في المزارع، بل أكثر من الفلاحين أنفسهم، فبدأ بتكوين مجتمعه الصغير المتنوع؛ فهو يملك الأصدقاء و لم يكتفِ بالعائلة فقط كما رسم تنون الأول لأبنائه من بعده..

بدأ بنقل القليل من الثقافات المتوارثة للعائلة والقليل من حضارتهم ليظهر بدور المنقذ والقائد المفقود، يبدو أن الدستور ليس هو من حفظ مكانتهم في الماضي فقط بل إن جينات تنون الأول المتوارثة لها أثر السحر..

مع تقادم الأيام أصبح الكل يلعب دوره بإتقان، الدور الذي رسمه كلٌ لنفسه لا الذي رُسم له..

سلاف وأوزكان ولودس.. رغم اختلاف اهتماماتهم إلا أن أحدًا منهم لم يفته درس القراءة لميدون العجوز يومًا ما..

لم يبدُ ميدون كما هو عليه.. بل يعلم كل شيء أو أنهم لا يعلمون شيئًا..

كان مهتمًا بلودس اهتمامًا شديدًا، كان يوليها عناية أشبه ما تكون بالخاصة..

كانت معظم عنايته هي المراقبة من بعد وتدوين ما يحصل في المنزل، هي عادة اعتادوها من عهد أبيهم وأقدم ربما..

رسخت الكثير من الجمل في أذهان الأبناء وأمهم المراقبة لسير الدروس عن بُعد، تلك الجمل التي لم يستطيعوا لها تفسيرًا..

لم يفصح أحدٌ للآخر عما يملأ جوفه من الاستفهامات، بل كل كان له شأنه الخاص وتفسيره الذاتي.

كانت الجمل متفرقة من دستورهم وأخرى توصف تاريخهم وشذرات من مذكرات للجد احتفظ بها لنفسه..

كان العجوز يرتبها بشكل غريب ويسردها بطريقة منتظمة كانت أقرب أن تكون شعرًا لفيلسوف عظيم..

يسعد دومًا بتلقي أسئلتهم المختلفة عن تاريخ عائلتهم وحتى أسئلة أوزكان المفخخة..

دائمًا كانت الأجوبة حاضرة ومختصرة ومباشرة من ميدون، وكان الكتاب ذو الأربعين ورقة حاويًا كل أجوبتهم.

هذا الكتاب ذو الغلاف الأحمر الجلدي المتهالك كان يحفظه العجوز عن ظهر قلب.. كيف لا وكانت جميع إجابته لهم بإسهاب تسبقها نظرة خاطفة إلى صفحات الكتاب..

كان يجيبهم عن ما يحبون ويكرهون، عن الأوصاف، عن تاريخ ولادتهم وملابسات وفاتهم، حتى ألوان قمصانهم!

كان دائمًا ما ينادي سلاف بدوندار نظرًا للتشابه الكبير في الصفات الخلقية مع دوندار جدهم السابع..

ذلك الجسم النحيل، اللحية الصغيرة، تقاسيم الوجه..

انحناءة الظهر الطفيفة، وحتى خشونة الصوت ومضغ حرف الراء عند النطق..

تنون هذا العصر بدأ في ممارسة هوايات العائلة بصمت متقن موزون، فأجود الأراضي الخصبة أصبحت له كهدايا لخدماته الجلية، استمر في إتقان هذه الألاعيب والحيل، بدأ في مشروع إنشاء كيان مستقل وربما إمبراطورية قادمة، ليست هذه الأمور بمستغربة بل الغريب هو حالهم الآن..

لم يلقن أحد أوزكان هذه الممارسات بل حتى نازك لم ترغب ذلك لأحد أبنائها.. تريد حياةً جديدة لا بعثَ معيشةٍ سابقة.

"لا تسبق أحدًا مطلقًا"، "لا تسبق أحدًا مطلقًا"، "لا تسبق أحدًا مطلقًا"..

كانت لودس ترددها دومًا لا تعرف معنى واضحًا لها أو مغزى مباشر من العبارة أو التكرار، كانت جملة رسخت في قلبها لا في عقلها منذ أحد أوائل دروس الثلاثاء المعتادة، لم تتجرأ بسؤال أحد للتوضيح أو التبيان..

كانت مؤمنة جدًا بما يكرره العجوز في دروسه دومًا: " الأيام هي من تفسر.. لا الأشخاص " كانت إحدى حكم الكتاب ذو الأربعين ورقة، أو هي من خبرة العجوز ربما..

دومًا ما تحاول لودس في الحصول على هذا الكتاب الأحمر لكن دون جدوى، فكان ملازمًا للعجوز أين ما ذهب، الكتاب ووريقات التدوين وخاتمه العقيق في راحة يده لا في بنصره.

لم تكن تريد الاحتفاظ بالكتاب ولا حتى قراءته.. أرادت أن تلقي نظرة فضول عليه، وقليل من المعلومات كانت تنتظر الأيام أن

تفسرها لها، ولكنها عجلت في أمرها.. وربما كانت تعتبر الكتاب نتاج أيام خلت لا ذاكرة إنسان حاضر.

يتردد سلاف هذه الأيام كثيرًا على ذلك المكتب الصغير.. مكتب خلوات أجداده المليء بالأوراق المبعثرة وأنصاف الكتب بعدما نهلت الفئران منها الكثير من الورق والأسرار..

لم يجد ما يثلج صدره من معلومات أرادها في نواحي الحياة المختلفة والعلوم الأخرى المتفرقة، وأسئلة تجثو على صدره أراد لها تفسيرًا.

لم يحب ميدون كثيرًا و لم يكرهه أيضًا.. بل كان له موقف الحياد منه وأقرب للسلب دومًا..

أراد معلمًا غيره.. مصدرًا غيره.. لكن للأسف كان هو الوحيد، فلا مناص من درس الثلاثاء المشئوم..

أصبح سلاف كثير الخلوات في القبو.. يكاد لا يخرج منه..

أوزكان كان دومًا بخارج القصر.. يكاد لا يدخل فيه..

نازك بدأت تتقدم في السن.. فهي أصبحت تريد الاهتمام أكثر فصحتها في تدهور دائم..

لودس كانت وحيدة وتأكدت وحدتها الآن، كانت تلاغي مرآتها دومًا، تستأنس بمرور الفئران سريعًا في أطراف الغرفة.. حتى الكولستان أصبح الذهاب لها شاقًا..

الحبو كثيرًا على هذه الأرض الخشبية المهترئة ملأ الجسم تقرحات في أنحاء متفرقة، ولكن لازالت وجبة الاستكشاف والتأمل في الكولستان مستمرة.. فهي مؤمنة أن بين ثناياها الكثير من الأسرار..

ورغم ذلك.. فما زالت لودس بشوشة والعجوز مراقبًا من بعيد..

في ذلك اليوم المطير أصرت لودس على الخروج للكولستان لرؤية المزيج الفريد لعناصر الطبيعة للمرة الرابعة خلال سنة ونصف.. والاختباء في أسرارها..

ولكن هذه المرة كانت مختلفة.. فالمطر كان قويًا إلى حد ما وقررت إحدى الزواحف وضع بصمة مميزة على جلد لودس..

كانت صرخات الاستنجاد مدوية.. صرخت وصرخت وصرخت..

ولكن كان هدير المطر عاليًا.. أو كانت جدران القصر جيدة.. فلم يسمع أحدٌ كلَ هذه الاستغاثات.

رجل بمعطف جلدي طويل وقبعة تملأ رأسه ليس ببعيد.. بدا كأنه متجه لها بعد أن حاد عن طريقة، اقترب أكثر و لم تظهر أي ملامح فمدى الرؤية الواضحة كان ثلاثة أقدام أو أكثر قليلاً.. تملكها الكثير من الخوف..

عند الاقتراب انهلت أساريرها.. ميدون الذي لم يكن يتعدى حدود القصر آتٍ من بعيد وفي ليلة مطيرة..

لم تكن هذه الصدفة الأولى في إنقاذ العجوز للودس؛ فاحتراق الكوخ.. ولدغة الثعبان.. وحتى الوحل في الحقل المجاور.. كلها كانت حوادث ماضية لعبت الصدفة الدور الأكبر في إنقاذها.. هي تستحق الحياة.

*****

لم تكن أخشاب البلوط والمطاط والمعاول الجديدة واعتكاف الأحد عشر يومًا الأخيرة فراغًا.. فلقد أخرجت مساحة القبو اليمنى المخصصة لسلاف أولى نتاجها..

كرسي لودس المتحرك كانت أولى منتجات سلاف الفعلية..

لم يكن الكرسي مجرد كرسي..

بل كان حادثًا مشئومًا.. فلم تكن لودس في يوم من الأيام بهذا القدر من التعاسة..

عنى لها هذا الكرسي الكثير.. فقد أكد عجزها.

كانت تمني نفسها أيامًا وليالي بأن يعودوا لحملها.. مساعدتها على النهوض.. الاهتمام أكثر.. أو كالسابق على أقل تقدير..

جاء هذا المارد وحطم كل شيء..

اعتبرته رسالة مبطنة أيضًا "سئمنا منك"..

تسوء حالتها يومًا بعد يوم، ثلاثة أسابيع لم تخرج للكولستان و لم تقترب من الكرسي أيضًا.

سلاف كان أكبر همه انجاز الكرسي.. و لم يهتم به بعد ذلك، وقد بدأ فعليًا في اعتكاف آخر لصناعة عربة أو خزانة ربما..

لم يتغير شيء في القصر فالكل مشغول بنفسه عدا ميدون بدا قريبًا من لودس هذه المرة..

انتقل بها إلى غرفة أخرى أكثر رحابة وأبعد ما تكون عن الحديقة، فقد حرص على إسعادها أكثر من تعلقها بالكولستان..

غرفتها الجديدة جميلة حقًا.. كانت لمبيت الضيوف في عهد مضى وأقفلت مع غيرها من الغرف الكثيرة..

جمع ميدون أثاثها من غرف مختلفة وحرص أن يكسو الغرفة الخضرة.. فهو لونها المميز..

انتقلت وكانت تغمرها فرحة ظاهرية.. فهي لم تبح لأحد بالكوابيس الليلية والنهارية أحيانًا.

استراحت كثيرًا بعد الانتقال وبعد الدروس الخاصة الإضافية مع العجوز..

أصبحت ترى أوزكان كثيرًا في منامها أكثر من ما تراه في فترات الغداء الجماعية المتقطعة..

انتظار المساء هو ديدن لودس اليومي.. فالاستمتاع بوجبة أوزكان القصصية تجربة تستحق الانتظار..

كل ليلة يأتي ويحكي لها أروع القصص في منامها؛ فتارة يحكي لها عن الحقول ويسهب تارة في ذكريات طفولتها..

ومؤخرًا صار يروي لها قصة حبه من بابل.. كيف بدأت بكذبة وانتهت بحقيقة.

نظرات العيون البريئة، حركات الأيدي، خفقان القلب.. حاضرين عند ذكر بابل..

كل حواسه تحكي وليس لسانه فقط..

حكى كثيرًا عنها، حكي عن شعوره، أحاسيسه، وقوامها أيضا.

كانت لودس مستمعة جيدة، مستمتعة بحكاياه وأساطيره وأعارته سمعها وقلبها..

قصة بابل شدتها كثيرًا، لم تفهم الكثير منها لكن أحست بها أو سعدت بسعادة أخيها ربما..

كل صباح تترجم الأحلام إلى حكايات تحكى لميدون..

كان يعيرها سمعه وانتباهه الكامل تمامًا كحال لودس مع أوزكان..

يطمئنها دومًا بتفسيره لسائر الأحلام.. فعلاُ لم يفسر حلمًا إلا وقع..

لم يكن عالِمًا بالأحلام ولكنه ذات الكتاب الأحمر العجيب..

فكان يفسر به الأحلام أيضًا.

عند ذكر قصص بابل تظهر ابتسامة جميلة تكسر تلك التجاعيد التي رسمها الزمن بإتقان على وجه العجوز..

لا يقبل الإيجاز أبدًا في هذه القصة بالذات، فعلاً كان مهتمًا بجميع النواحي والتفاصيل..

يبدو أنها ذكرته بماض جميل..

لم ترد لودس إيقاف سعادة العجوز المتمثلة أمامها.. تحكي وتحكي..

ما لم تتذكره جيدًا أبدلته ببراءة بقصة من مخيلتها ولكن سرعان ما يكتشف الإضافة ويوبخها على الكذب..

لم تكن تريد الكذب بل أرادت إسعاده ولكن مخيلتها صغيرة على الحب.

بدا الاثنان متفاعلين جدًا مع القصة وينتظرانها كل مساء فهي مستمرة بانتظام..

أصبحا يتراهنان في استباق الأحداث.. وفي صباح كل يوم جديد يكسب العجوز الرهان دومًا..

أسبوعان لم يأتِ أوزكان.. ربما كان مريضًا أو أخذ حبيبته إلى مكان بعيد..

لا بأس.. هذا قد يزيد تشويق القادم من الأسابيع فالمزيد من الأحداث هي حتمًا مزيد من المتعة..

عادت الأحلام المختلفة إلى لودس بعضها جميل والغالب لا معنى له..

عزاؤها الوحيد هو جلسة التفسير، فكم من الأحداث ستعلمها قبل وقوعها..

عاد أوزكان ولكن عاد كابوسًا فلقد جاء بوجه مشوه..

استيقظت مذعورة وبعدها انقطعت كل الأحلام عدا القليل من الكوابيس تأتي بفترات متباعدة وغير منتظمة.

تزامن انقطاع الأحلام بانشغال ميدون العجوز بمهام الأم الفجائية..

لم تعد تراه إلا في فترات متقطعة محمل بأغراض إلى داخل القصر وأخرى أكبر إلى خارجه..

اكتشفت بعد فترة إنها استعدادات فصل الشتاء.. فهو على الأبواب..

خُزنت الكثير من المؤن، زادت واردات القصر إلى الضعف.. فنصف محاصيل المزارع أصبحت بتصرف القصر..

أوزكان له الفضل الأكبر فالفلاحين يدينون له بالكثير..

استنفار رهيب في القصر.. الكل يعمل؛ سلاف توقف مؤقتًا عن توسيع قبوه وبدا مساعدًا للعمال والخدم الآتين خصيصًا للقصر في هذا الوقت..

أهمية القصر في الوقت الحالي تكمن في فصل الشتاء فهو المكان الأشد أمنا لجميع المؤن في المنطقة وهو مستودع للفلاحين وقاطنيه أيضًا..

انتهت فترة الاستنفار وحل الشتاء..

عاد كل إلى عمله، وعاد سلاف إلى قبوه مستكملاً ما بدأ فيه..

فلقد ضاقت المساحة جدًا؛ الأخشاب والجلود وغيرها من المواد والمصنوعات أيضا منتشرة..

أصبح معرضًا أقرب منه إلى ورشة للعمل.

بدأ في تنظيف الجزء الآخر من القبو الذي كان لأبيه..

أراد مساحة جديدة للعمل فقط لا انتهاك خصوصية أومود..

أوجد المساحة المناسبة بل كانت مساحة أبيه المجهزة مسبقًا مساحة عمل حقيقية ومعدة باحترافية..

سعد سلاف جدًا بالمكان الجديد، بدأ يعمل وبدأ ينتج أكثر، تأكد له أن بيئته السابقة لم تكن صحية ومناسبة..

مرت الأيام وزادت الأوراق المطوية من التاريخ وزاد فضول سلاف في رؤية المغطى من حاجيات أبيه..

ولكن لا يمكن أن ينتهك خصوصية عميد الأسرة.

زار والده في قبره مرارًا وتكرارًا، استأذنه كثيرًا.. لم يجب..

بحث في كل مكان عن مبرر لفعلته النكراء فهو مقبلٌ عليها لا محالة ولكن يريد سببًا فقط..

انتابته فكره شيطانية ربما تكون الحل.. نعم إنها الحل.

انتظر الثلاثاء كثيرًا، لماذا لم يأتِ سريعًا كالذي مضى؟

أم إن الأيام تسير وفقًا لهوى تنون الأول!؟

جاء الثلاثاء.. كان الموعد مناسبًا لتحقيق مراده..

بدأ درس ميدون العجوز وتلاه الكثير من الأسئلة، كانت هذه المرة من سلاف على غير العادة..

جميع الأسئلة عن نصوص الدستور.. نصها ومعناها.. التالي.. نصه ومعناه.. فالتالي والتالي..

على هامش الدستور وجد مراده..

"الزمان والمكان متغيران.. وعميد الأسرة هو الثابت.. فيختار الأصلح دومًا".

انتهى اللقاء بانتهاء الأسئلة، كان درسًا طويلاً حتى حان وقت الغداء..

اجتمع الجميع على مائدة الطعام.. منظرٌ قلَّ تكراره..

لم يجتمع كل أفراد الأسرة الصغيرة على مائدة واحدة إلا ما قد ندر.. فهذه مناسبة سعيدة إذًن..

تناول سلاف طعامه بسرعة وقام بخفة دون وداع ودون طقوس العائلة في شكر النعمة بعد الطعام..

قام إلى مرآبه سريعًا وكأنما شخص مهم بانتظاره، ما بال المسافة بين السفرة والقبو قد طالت على غير المعتاد..

ما إن وصل إلى القبو إلا مد يده إلى الرف السفلي الأيمن..

ها هو كتاب الدستور الذي أخذه من مكتب الخلوات في الليلة السابقة.. كل شيء على ما هو مخطط له..

لبس حلة أبيه الحمراء، تباهى بها قليلاً أمام المرآة، كانت ضيقة قليلاً لكن لا حرج فهي ملائمة للمطلوب..

تراجع عن قراره.. خوف وتردد.. هل صحيح ما يفعله أم لا!!

"الزمان والمكان متغيران.. وعميد الأسرة هو الثابت.. فيختار الأصلح دومًا"..

تذكر العبارة وعدل عن التراجع، كان الأكبر.. هو العميد.. إذًا هو الثابت وخياره الأصلح..

بتهور قرر تعميد نفسه بنفسه سرًّا والآن..

أمسك بالدستور بيده.. رفعه عاليا كأنهما يستقبله من على منصة التعميد بمنتصف المدينة..

أكمل طقوس التعميد المتعارف عليها وحده وعمد نفسه رسميًا، لن يجادله أحد فخياره الأصلح..

لم تكن العمادة هي طموحه أبدًا ولكن كانت طريقة مثلى لبلوغ مناله.

عميد الأسرة لا يتقيد بالزمان ولا المكان يقرر وخياره الأصلح..

عميد الأسرة الجديد يقرر "لا خصوصيات بين العمداء، ويرفع غطاء الخصوصية عن ما يراه العميد حق مشاع"..

أخيرًا سيشبع فضوله..

ظل أمر العمادة سرًا فليس في نيته الإفصاح عن هذا الأمر إطلاقًا..

بإمكانه الآن نزع كل الأغطية القماشية وفتح كل الدواليب الموصدة لكنه بات بعيدًا عنها، أصبح بالقرب من مساحته القديمة كثيرًا..

تملَّكه الكثير من الخوف مصحوبًا بموجات تردد عالية، لم يستطع الاقتراب..

قرر إكمال أعماله بعيدا عنها.

*****

إنها ليلة الرابع والعشرين من شباط لعام ١٧٧٣..

هذه الليلة هي منحنى جديد في حياة أوزكان..

لم تكن زيارة نهر بيسان كسابقها من الزيارات فقد اعتاد امتداد أوقات الاسترخاء لساعات طوال..

إنها الوحدة في مكان خال من البشر.. كانت ممتعة..

ولكن هذه المرة لم يذق طعم الراحة في الاستلقاء، نهر بيسان الذي لا يبعد كثيرًا عن تل القصر..

قرر العودة..

شعور غريب يداهمه، تمهل.. فالنداء الغامض يوجهه نحو الغابة، بدأ يراقب السناجب التي تقفز بين الأغصان بخفة، يطالع قمم الأشجار العالية ويعبث بوريقات الشجر المحاذي لحافة النهر..

إنها تجلس على الصخرة الكبيرة في النهر وقد بلل النهر ثيابها، هكذا رآها من بين أغصان الأشجار تحاكي النهر أو تشكو له..

بدا مهتمًا لها.. يرقبها.. يرقب حركاتها وسكناتها.. من أين أتت؟!!

لم يكن بالمكان أحد.. فهنا يسمع دبيب النملة..

الجو صاف والهدوء يعم المكان، من أين أتت؟!!

دومًا كان يتأمل الصخرة والماء منساب تحتها والشجيرات تحيطها باستحياء، كان دومًا على يقين أن اللوحة الجميلة لم تكتمل.. وها هي أمامه لتكملها..

تأمَّلها كثيرًا وكثيرًا، حفظ تموجات شعرها مع تدفق الهواء، وعدد الحجارة التي ألقيت ببرود، قد رسم بمخيلته كل شيء..

سَحَره رداؤها القرنفلي..

لم يستطع المكوث طويلاً بين الأشجار فعبق ساحر يسيره إلى هناك، لم يستفق إلا تحت سلتها القشية وتناثر حبات التوت البري على وجنته..

فزعت لرؤيته فجأة.. فهدير الماء كان يملأ المكان اطمئنانًا.

سقط شالها، تبعثرت أغراضها، تطايرت خصلات شعرها وهي تحاول استدراك الموقف..

رمقته بنظرة ازدراء لم تكتمل فما التقت العيون إلا ورجفة أصابت قلبيهما..

رعشة تملكت كل جسد أوزكان.. وحواسه أيضًا..

إنها هي.. هي.. نعم هي!!

خمسة أشهر انقضت وأوزكان كان مترددًا على السوق القديمة بمناسبة أو بدونها متلفتًا في أزقتها متفقدًا وجوه المارة..

كان اللقاء سريعًا وصامتًا أمام المحل العتيق للأقمشة..

نظرات خاطفة كانت كفيلة برسمها في أعماق الذاكرة وبين جنبات القلب الخفاق..

لحظات معدودة انتهت بطرف خجول وجسد مسرع في الخروج من المكان..

مضت الشهور الخمس والذهن شارد بها متعلق بأطلالها..

ينام على ما تبقى في ذهنه من عطرها ويصحو على ابتسامتها المشرقة، كانت ليلة ونهاره.. صبحه وكيانه..

تملكت كل ما فيه.. هي له، هي قدره، هي له فقط، كان إحساسه البليد يلقنه هذا كل ليلة..

سيلتقي بها ما دام حيًا، فلم ييأس من السوق العتيقة..

حادثة النهر هي الأجمل في حياته.. إنها هي.. نعم هي!

ربما هي الصدفة التي فاقت المواعيد مكانة..

ظل واقفًا تحت الصخرة ممسكًا بشالها الأبيض الذي ارتمى إلى راحة يده بعد سقوطه كأنه يبحث عنها.. بل هو حتمًا يبحث عنها..

ظل واقفًا تحت الصخرة وشعرها مرخيًا سدوله على أكتافها ونفحات النسيم تحرك أطرافه..

ما زالت حبات التوت تتساقط والعينان بينهما لغة عميقة..

نزلت من على الصخرة حتى اقتربت الأنفاس.. ثم رحلت..

رحلت.. ولم يكن آخر لقائهم نظرة خجولة بل كانت ابتسامة ملاك طاهر، ابتسامة سعدت بها السماء قبل خفقان قلب أوزكان..

بقي الشال حبيسًا بيده.. متمسكًا به بكل ما أوتي من قوة.. شاخصًا بالبصر غير مدرك ما حوله..

استدرك الموقف، ركض مسرعًا مقتفيًا أثرها، لا شيء.. فقد كان يطارد سرابًا صيفيًّا..

بقي الشال والابتسامة والصخرة.. وحبات التوت المتناثرة..

بقيت الذكرى وعطر أنفاسها يعبق بالمكان.. وابتسامة السحر كانت كفيلة بإضاءة تلك الليلة العذراء..

لم يتكدر ولم ييأس فرجع إحساسه البليد بتكرار اسطوانته المشروخة..

أصبح متيقنًا أكثر أن كفوف الظروف ستحنو له..

أربع ليالٍ كانت مضطربة وجميلة، لم يرد الكثير.. كان يريد اسماً فقط ليعلّق آماله به، يُعَنْوِن به ليله ويكرره عند كدره..

لم تمر الأربع سريعًا ولكنها مليئة بالمفارقات، لم يغادر القصر أبدًا.

اليوم الخامس كانت قدماه تجره جرًا نحو بيسان، مكث قليلاً أمام الصخرة، بدأ يبحث عن حبات التوت لكن النهر استأثر بها لنفسه..

إحساسه لم يخب.. فقد أتت..

هذه المرة كانت مختلفة فقد بدأ عهد جديد..

التقيا بسرعة ودار حديث أطول..

داوم أوزكان على زيارة قبر أومود فقد كان يحكي له قصة حبه..

وكل ما دار في الأيام الخالية؛ كل همسة وكل حركة.. كل كلمة في لقاءات النهر اليومية..

كان يصف أحاسيسه النقية وحبهم العذري الطاهر..

تزامنت الزيارات مع زيارات سلاف لقبر أبيه أيضًا ولكن كان لاعتذارات لا اعترافات..

لم ير أحد منهم الآخر مطلقًا.. فقد كانت الأقدار تدير الوقت جيدًا..

كانت اعتذارات سلاف تتوالى مع كل انتهاك لخصوصية أومود رغم أن الدستور المطهر قد قضى بأحقية الانتهاك بعد إضافة العميد الجديد تلك الفقرات..

مع رفع الغطاء عن كل أسينة كانت الاعتذارات تتوالى على أومود بدافع الضمير والخوف.. لا بأمر الدستور.

انقضى شهر ونصف..

أوزكان جاء مسرعًا من بعيد متوجهًا نحو أومود، محملاً بخبر رائع.. خبر طال انتظاره..

أخيرًا يا أبتاه..

أخيرا يا أبتاه..

إنها بابل.. أخيرًا عرفت اسمها.

*****

ازدادت لودس انطواءً..

إنها أيام حرجة، أصبحت ملازمة لأمها كثيرًا..

كبرت الطفلة، تغيرات شتى في حياتها.. في طبيعتها.. في جسدها أيضًا..

بدت تطغى ملامح أنوثتها..

صراع بين هذه الأنثى الفاتنة وتلك الطفلة البريئة، صراع داخل النفس.. تريد هذه وتلك..

السنن الكونية هي من تحكم هذه المواقف.. لا الرغبات..

هذه المرحلة مرت بشكل مختلف على سلاف و أوزكان أيضًا..

فقد كانت أشد المراحل تهورًا وعنفًا، إثباتًا للذات.. وحبًا للسيطرة..

لا يقبل أحدهم رأي أو نقاش..

كانت مرحلة لـ " نعم أنا موجود " وولت سريعًا.

سنتان مضتا على هذا الكرسي المتحرك في آخر الصالة الأرضية..

أصبح أسينة كالمنتشرة في أرجاء القصر، أو مزارًا أقرب منه إلى وسيلة للاستخدام اليومي..

لكن الآن فهو قدر لا مناص منه.. فلا يليق بفتاة أن تحبو أو يحملها ميدون العجوز أو حتى مساعدتها..

هي حرة طليقة الآن، كم كانت غبية لرفضها هذه المتعة لست وعشرون شهرًا.

أو ربما كان القدر مرجئ هذا الإحساس لهذه المرحلة.. فقد كان عونًا كبيرًا لتخطيها هذه المحنة..

التنقل بين غرف القصر بسرعة وهدوء في أي وقت بلا قيود..

الحديقة الأمامية.. الحديقة الخلفية.. وحتى القبو أيضًا فمسار العربات مجهز منذ تشييد القصر، خصصه مخططوه لنقل البضائع وها هو اليوم ينقل لودس..

شعور رائع.. مفرح كفرح الطفل بلعبته الجديدة..

هكذا كان شعور لودس بالكرسي وسرعان ما عاد شيئًا طبيعيًا وأمرًا لا يمكن الاستغناء عنه..

تمامًا كالحذاء الجديد، فرحته تنتهي بلبسه للمرة الأولى.. ويصبح بعدها ضرورة.

تبدلت العادات اليومية للودس؛ فقد أُدرج التنقل في ثنايا جدولها اليومي المزدحم، أصبحت ترى الشمس كثيرًا وتسامر النجوم أكثر..

لم تبدل عادتها في الارتماء في أحضان جذوع الكولستان المحطمة ولا الاختباء بين أعشابها التي لم تهذب.

لفترة السابقة كانت للاستكشاف أما الآن فهو للتحليل، استرجعت كل المواقف السابقة.. كانت ذاكرتها قوية..

استرجعت كل كلمة قد قيلت لها.. كل حكاية سردت لها.. كل ما فهمته مسبقًا.. أو لم تفهمه..

بعض المواقف لم تفهمها أيضًا لكنها أرجأتها إلى المستقبل.. فذاكرتها لم تخنها مطلقًا..

وأيضًا إيمانها بـ " الأيام هي من تفسر.. لا الأشخاص " فلم يقل العجوز شيئًا بلا معنى.

بل حتى حركاته كانت ذات دلالة عندما تسترجع المواقف الماضية.. وتفكر بها مليًّا..

أكثر المواقف استرجاعًا كانت تلك التي تتعلق بكتاب ميدون الأحمر.. فكانت أكثرها غرابة..

ازدادت تعلقًا به أكثر من ذي قبل..

دروس الثلاثاء هذه المرة كانت بنظرة مختلفة من لودس، لم يكن يجيب العجوز بإسهاب على كل الأسئلة.. بل كان لا يكمل الدرس أحيانا لانشغاله بترميم سقف القصر الداخلي أو أنه لاحظ لودس ربما!!

تكررت زيارات لودس لقبو سلاف هذه الأيام كثيرًا، تستمتع كثيرًا لرؤيته وهو منهمك في العمل وتستجمع أجوبته لكل ما يجول بخاطرها.. فعندما ينهمك في عمله يجيب عن أي شيء بدون تفكير وتحفظ..

حصلت على كثير من الأجوبة بلا عناء..

حتى أنه أخبرها بأمر العمادة بعد سؤالها عن سبب انتهاك حرمة قبو أومود..

حكى لها كل شي، حكي لها بالتفصيل بينما هو منغمس في كسر هذا الجحر المستعصي..

حقيقةً هي لم تستنكر منظر الأسينات وهي مكشوفة عندما رأتها في أولى الزيارات منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا..

أرادت معرفة السبب فقط.. إنه الفضول.. لا شيء غيره!

بل كانت مندهشة من صبره على الفترات الماضية وهو لم يفعل ما فعله، لو كانت مكانه لتفحصتها مليًا منذ الليلة الأولى..

سلاف أصبح أكثر حرفية في عمله.. فاستخدامه لأدوات أومود كان له الأثر العظيم..

لم يكن في السابق يستخدم سوى بعض المعاول والأدوات البدائية البسيطة.. لا تفي بالأغراض دومًا..

بل أوقفت العديد من طموحاته..

كانت أبرز صدماته بعد اقتحام عالم أبيه هي أدواته الفريدة والمميزة..

سكاكين بأحجام مختلفة.. حدائد بأطراف مدببة وأخرى أكثر حدة.. صفائح.. كرات ثقيلة.. خيوط ومشابك.. العديد من الفرش.. والكثير والكثير..

فلم تكن تلك الأدوات المختلفة هي ما بهرته فقط بل الدقة، فكل صنف من المواد له أدواته الخاصة..

تفقدت لودس الأسينات جميعها، توقفت عند كل قطعة منها ولم تترك أسينة إلا وعرفت قصتها، وجست نبض نبلها.. تمامًا كما اعتادت أن تفعل مع تلك المنتشرة في جنبات القصر.

استوقفتها الأسينة الرابعة، تلك الكرة الضخمة التي اشترك بها خشب البلوط وقطع نحاسية تغزو أنحائها.. وقد تناثرت حولها أحجار النهر الملساء.. كانت أسينة مبهرة!

لم تفهم مغزاها.. لكن شعرت بقربها منها كثيرًا، حاولت استنطاقها مرارًا.. لا جدوى.

هذان الشهران كانا مقسمة بين الكولستان والقبو..

يحاول دومًا سلاف أن يتفرغ لينظف كومة الصناديق والقش المؤدية للأسينة الأكبر..

تلك الأسينة الضخمة التي عكف أومود سنينه الأربع عليها قبل وفاته..

كانت مغطاة بقماش وردي اللون، تقدر ارتفاعها بعشر أقدام تقريبًا..

كلما حاول الاقتراب منها أتاه ما يصرفه عنها، كان موقنًا أن روح أبيه هي من تمنعه.

صرف النظر عنها.. ولم يعد فضوله إلا بعد إصرار لودس على رؤيتها..

بدأ في تنظيف كومة القش، لم يكن ما يصرفه، لم تكن روح أبيه حتمًا..

أصرت لودس على سلاف ألا يكشفها إلا بحضورها.. مهما كان.

وعدها..

كان يوم الأحد هو اليوم المنتظر، لم تنم لودس طيلة الليلة الماضية.. وهو كذلك..

وقفت الأسينة شامخة فوقهم..

أزيح الغطاء الوردي..

بدت المنحوتة المصنوعة من المرمر الفاخر أكثر شموخًا من ذي قبل..

كانت متقنة الصنع، الكثير من التفاصيل الدقيقة والبالغة الدقة، لم تكن أي من الأسينات السابقة بهذه الدقة..

كانت حكاية منسوجة.. وغير مفهومة.

ستة أشخاص بأعمار مختلفة يتوسطهم رضيع طمست ملامح وجوههم تمامًا.. بينهم العديد من الأشكال ذات الدلالات المختلفة..

كانت أطراف الرجال الحديدية قد بدأت في الذوبان.. الحرارة عالية أو أذيبت عن قصد ربما..

ذُيلت الأسينة بمربع كبير سطرت فيه عبارات لم تكتمل يبدو أنها كانت عن الأسف..

أُشبع فضولهم برؤيتها ولكن زادت حيرتهم أكثر.

*****

استمرت لقاءات أوزكان وبابل..

كان يجمعهما ذات الإحساس..

عرفها أكثر من ذي قبل.. فاسمها بابل، تسكن في قرية مجاورة.. لا يعرف اسمها..

عرف أنه أحبها أكثر من نفسه ومتيقن من حبها له أيضًا..

عرف إنها ابنة لذلك التاجر المتعجرف صاحب الطواحين الضخمة في أسفل التل، يعرف أنها تحب التوت أيضًا..

هذا كل ما يعرفه فقد عرف كل شيء.

لم يرها شهرًا كاملاً بعد أن أهداها تاجًا نحاسيًا، بعد التاج الفضي الذي سبقه بشهور مضت..

في أعراف التنونيين كان النحاس هو طلب للزواج.. والفضة للحب، وشكل الهدية هو رمز بين الاثنين فقط..

كانت لياليه غامضة.. لا غضب ولا فرح.. لا شعور..

قليل من اطمئنان وكثير من قلق.. الكثير من الراحة وقليل من أرق.. شعور ممتزج.. أو لا شعور..

رواية لودس وتفسير العجوز يؤكدان حضورها للقصر..

فقد كان التأويل عودة بعد الفراق على مركبين، أحداث تتوالى.. ومبهمات كثر.

طرقات حنونة على باب القصر الخشبي.. لودس بالقرب من الباب.. فتحته على غير العادة.. قد ساقها القدر..

وجه بشوش ظهر بين الكثير من الإشعاعات الشمسية، تقدمت نحو الداخل بخطى ثابتة..

إنها هي.. تمامًا كما وصفها أوزكان؛ العينان.. تفاصيل الأنف.. الشامة الجميلة التي تعلو الحاجب الأيسر..

لم يكن وصفًا.. بل كان رسمًا كلاميًّا..

لا مجال للشك إنها بابل، رحبت بها واستقبلتها في غرفتها، دار حديث خجول..

عرفت لودس بمجيء بابل منذ سنتين تقريبًا.. لكن لم تتوقع مجيئها في هذا الوقت فلم ترى العلامات السابقة في أوزكان.. أو ربما لم تلاحظها.

كانت تعرف الكثير والكثير عنها ربما أكثر من بابل نفسها..

عرفت عن بعض تفاصيل حياتها؛ طباعها.. عرفت حتى حبها لقشرة التفاح الخارجية.. وعرفت الكثير عن مستقبلها أيضًا..

رواية العجوز تقتضي حمل بابل تاجًا نحاسيًا لأوزكان، مقابلة الأم أيضًا، الكثير من الأحداث قد تذكرتها لاحقًا..

فرصة مثلى هي للودس قد كانت تنتظرها طويلاً..

أرادت أن تفند تفاسير العجوز، أرادت تكذيب بعض أخباره، أرادت انتزاع رهبة هذا الساحر.

أخفت بابل سبب طلب لقاء أم لودس عن نفسها فقط..

فقد كانت لودس تعلم مسبقًا أن أمها ستقبل التاج.. وستبارك هذه الزيجة..

لم تأت بابل بأي شيء معها.. إنها الضربة الأولى، وسوف تمنع بابل من الَخروج إلى أمها، ستكون ضربة أخرى تثبت هراء ذلك العجوز..

اطمأن قلبها.. ستزول عقدة ميدون..

كانت حزينة على تصديها لسعادة أخيها لكن هي فرصة لا تعوض.

طرقات خفيفة على الباب.. مداهمة قبل سماع تأكيد الإذن على الدخول، كيف تستأذن بغرفة ابنتها الصغيرة!! اعتادت قرع الباب قبل الدخول فقط..

لم تعهد نازك صديقات لابنتها واستنكرت الزيارة بباطنها..

عرَّفت بابلٍ بنفسها للأم وابنتها فهم يعرفونها للمرة الأولى، رغم مكوثها طويلاً مع لودس فلم تعرف بنفسها..

دار حديثٌ طويل بينهما..

صُدمت لودس بإخراج الضيفة ذلك الخاتم النحاسي من سترتها..

كان التاج مسار شؤم لقبيلة قارمان فقد بدل القدر التاج بالخاتم وبورك الزواج.

نعم إنه الثوب الأحمر.. لم تكن تحبه نازك كثيرًا ولكنه كان مبروكًا في الرواية القديمة، لم تلبسه عنونة أيضًا..

استرجعت فصولاً عديدة من الرواية، أرادت إفساد الكثير من الأمور بإبطائها أو تغييبها.. ولكنها كانت بطريقة أو بأخرى تساعد في إتمام الفصل القادم..

أصبح أوزكان مقربًا جدا من أخته.. كثيرًا..

كانت ملهمه الروحي ومستشارته في ما استعصى عليه.. خصوصًا مع بابل..

أثارت دهشته في تفسير المواقف واستبقاها أيضًا رغم صغر سنها..

لم تكن صاحبة تجربة وخبرة، ولا ذات عقل أشد رصانة من أوزكان..

كانت فقط تقرأ أجزاء الرواية بانتظام على مسامعه وقد كان مستمعًا جيدًا، كانت صوتًا لميدون وهي لا تدري..

أُعجبت بدور الكاهن المنقذ، حاولت لِعْبَه مع غير أوزكان.. لم تفلح..

خصص لها القدر ساحة صغيرة للاستعراض والمباهاة..

كانت حادثة البئر والسرقة أكثر ما أدهشت أوزكان، بعدها قرر إعلان الزيجة، اقتضى رأي لودس المقتص من تلك الرواية ذلك..

أُعلنت الزيجة في القصر، أُعلنت بمباركة نازك وياجن تاجر الطواحين..

كان حفلاً بسيطًا تخلله الكثير من طقوس آل تنون.. فهم لا يزالون يقتاتون من مجد قديم.

*****

عادت الحياة إلى رتابتها المعتادة..

إننا في أواخر العام الرابع والسبعين بعد السبعمائة والألف..

لم يكن بهذا العام ما يعلق في أذهان الجميع.. فحدث الأمس هو مكرر اليوم، وغدًا سيتكرر..

لودس.. أوقاتها مقسمة بين الكولستان وزيارة أمها المريضة على أنوار الصبح وعودة إلى كولستان أحبتها مرة أخرى.. لا شيء غيرها يستحق الذكر.

أوزكان.. جل وقته كان عملاً في حقوله وعند المساء في الملحق الرئيس بالقصر، قد جُدد وأعيد طلائه وخصص لبابل.

سلاف.. افتقد قبوه كثيرًا بعد مشاركته لأعمال أوزكان التي أرهقته متابعتها، ملازمة أمه ليلاً كانت عادته الجديدة و لم ينس عشقه لسكاكينه ومخبأه القديم.

ميدون.. ما زال مهتمًا بالجميع مديرًا لأمورهم ومراقبًا لهم عن كثب، غير أنه أصبح كثير الخروج..

درس الثلاثاء هو ما يجمعهم فعليًا فقط.

نازك.. ازداد مرضها مؤخرًا ولا سبب كان واضحًا لكل الحكماء الذين أشرفوا على حالتها..

الراحة هي نصيحتهم الوحيدة، ملامحها الشقية اكتسبتها منذ طفولتها فهي في راحة هنا.. ربما كانت الراحة هي علتها.

منذ ما يقارب الشهر ولودس تراقب أوزكان كثيرًا.. إنه الفضول..

قد توقف الجزء المعلوم التفاصيل لها وهذه هي فترة الكوابيس، حتى ميدون لم يفسرها لصالح هذه الرواية الشيقة..

أرادت معرفة كل شيء..

لا شيء مشوق.. فكانت الأحلام السابقة تحكي أدق التفاصيل.. كل المشاعر.. أدوار رئيسية وأخرى هامشية.. أحداث لن يهتم بمعرفتها أحد سوى لودس..

حاولت بمحاولات أخرى استنطاقه عله يكون بكرم أوزكان السابق.. نصف كرمه أو أقل قليلاً..

توقفت عن المحاولات..

لا شيء مشوق وراء تعبٍ فقط.. كيف لم يسأم ميدون من هذه العادة، استمر عليها كثيرًا من السنين.

*****

إنه الثاني من آيار من العام ١٧٧٦..

هذا الثلاثاء شهد الحدث الفيصل الأكبر في حياة لودس..

هذه البنت الفاتنة ذات القلب الطفولي كبرت سريعًا..

ها هي الآن الطفلة في ربيعها السادس عشر، كبر عقلها.. زادت فتنةً وجمالاً، تألقًا وحكمة..

لكنها لم تكبر أبدًا عن ألعاب كانت لها وعاداتها أيضًا..

استقت من جمال أمها قليلاً وأبيها أيضًا وجينات ابتدأتها هي لأجيال جميلة بعدها..

بدت هذه الأيام شديدة التعقيد؛ مزاج متقلب.. محن شديدة.. وظروف أشد..

الفرحات القليلة كانت تتخلل بعض أوقات الكدر.. لا تصمد كثيرًا وسرعان ما تنقضي..

كانت تاريخًا تثبت به أيام أسبوعها..

وتعبث بها أيضًا..

كان يوم الثلاثاء مشهودًا.. ليلة لم تمض كسائر الليالي..

كانت تلك الليلة هي ما يدعونها بالليلاء..

حل مساء لودس بين غصينات قد يبست بمنتصف الكولستان، الرياح خفيفة.. الشمس غربت مبكرًا.. تركت خلفها مزيجًا من ألوان بهية طبعتها بين ثنايا سمائها..

لودس على جذع صغير قد مال ليأنس بقربها، حتى الأعشاب قد اعتادت أنفاسها..

أصوات حركة ليست ببعيدة لم تكن لحيوان أو قارض من الذين شاركوها نعيم الكولستان فحركتهم خفيفة، دومًا يحاولون ألا يكشف حركتهم أحد وكل من بالمنطقة قد أحس بهم.. يا لغباء هذه الكائنات!!

قد كان صوت حركة بشرية.. شخص ما مقبل، ليس ببعيد، ملامح لم توضح، لم تكن مألوفة أيضًا..

فزعت عند رؤيته..

عجوز لم تره من قبل.. عظيم البنية.. عريض منكباه.. كثافة شاربه لم تدع لفمه الظهور..

بياض لحيته الكثيفة والمغبرة هي ما تميزه، كانت ثيابه بها بعض الغرابة بل هي غريبة..

نظر إليها شاحبًا كأنما اقتحمت أرضه ونكلت بمن فيها، لم تكن للاستغراب وحسب بل كانت أقرب لنظرات ثأر قديم.. هذا هراء.. فهي لم تره من قبل!!

خليط من الفزعة والهيبة انتابت لودس، توردت خداها كثيرًا، استجمعت قليلاً من شجاعة وصمدت، لم تكن من صفاتها سابقًا، في السابق حيث لم يحن المساء بعد..

أسئلة كثيرة دارت بخلدها لكن اللحظات القادمة ستفسر.. لا الأيام..

الأيام القادمة ستدون، لا مجال لتدارك لحظات قد تمضي، متابعة خطاها هو سيرها القادم..

النظرات ما زالت متبادلة، لا شيء يمنع ضوء عين لودس عن عيني العجوز الزرقاوتين سوى ظلام الليل، يكاد أن يغيبه.. الإصرار كان أقوى..

أسنان تكافح لترى قليلاً من ظلام الليل بين شعيرات كساها البياض خجلاً من الزمن.. لقد كانت ابتسامة خفيفة..

نعم لقد ابتسم..

كُسر جمود الموقف وحطمت كبرياء الهيبة التي تنزلت..

عرف بنفسه جيدًا فالتعريف من شأنه تخفيف الموقف أيضًا.

هول الصدمة أفقد عقل لودس توازنه قليلاً.. لم يعد يتذكر الاسم الذي تلقاه منذ ثواني..

تذكر أن أسمه مختومًا بـ ويل هيل.. سيل.. لم يتذكر حتى نهايته جيدًا، قد كان حديديًا قبل لقاء الغريب.

بدأت بإقناع نفسها ومنابع فضولها.. لا يهم الاسم..

لودس بدت مهتمة جدًا به، فدومًا ما يأتي الغرباء بلحظات مفصلية وحكايات من شأنها إضافة الكثير والكثير وفهم أكثر صدقًا من الذين نواجههم كل حين..

تحضرت لاستماع المدهش من القول.. تقاسيم وجهه.. التجاعيد بين حاجبيه.. قد سبقته بالنطق..

حكى لها الكثير بتحفظ لكن لسانه واستنطاقها أسهبا حديثه قسرًا..

فقد كان سادويل من سكان القصر القدماء..

عاش وتربى بين جنبات القصر وفي أكنافه الفسيحة، لم يكن مهترئًا ذي قبل..

بل الزمن كان كفيلاً بطمس جماله الأخاذ..

كان صادقًا ولا ريب فقد وصف كل ما في القصر؛ غرفه ودرجاته.. مخارجه وملاحقة.. الكثير مما لا تعرفه لودس حتمًا..

كيف لا يعرف القصر وهو من شيده!!

كانت عينا لودس شاخصتان، عقلها الصغير بدأ يتقلب كثيرًا، لم يستوعب كثيرًا مما قيل، أو هي من كوابيس ستبدأ محط رحالها لدي..

غدًا سأصحو وميدون سيفسر كل شيء لن أرهق عقلي كثيرًا..

كانت على يقين من استيقاظها فالمبررات لم تفِ بغرضها، صبرًا أيها العقل ليس يوم يسمح به الخذلان.

بُني القصر لسادويل سابقًا عاش طويلا فيه، استمتع بكل ركن من أركانه..

لم يفارق القصر أبدًا.. بل القصر من تركه وكل من حوله أيضًا..

لم يترك القصر إلا بعد وفاته قبل أكثر من مئة عام..

نعم.. كان الماضي مجيدًا والآن هو مجرد ماض..

لم يكن له ذرية يخلفونه بالقصر يخلدون ذكراه.. يعمرون القصر ويتوارثونه، تمنى لو كان له أصدقاء مخلصون من بعده..

وصف لها معنى تشييده قصرًا عظيمًا في ذلك الزمان، كيف كان افتخاره وتقرب من حوله.. تملقهم.. كذبهم.. نفاقهم..

لو عاد به الزمان لبنى بيتًا صغيرًا وكسب حب من حوله صدقًا.. وفقط..

بدت لودس غير مصدقة لحديثه، لم تعهد محادثة موتى من قبل، فلقد زارت أبيها من قبل، لم تره.. لم تسمعه.. لم تحس به.. ولم يخبرها ميدون بذلك أيضًا..

أحست بدفء تراب مرقده ربما.. لكنه ليس دليلاً على دفء إحساسه؛ فصيف هذه الليالي كفيل بتسخين التراب إن أراد..

لم يجادلها كثيرًا.. فبضع حوادث ذكَّرها بها تيقنت بعدها من صدقه..

حادثة الأطفال الذين كانوا معها في الكولستان لم تكن الوحيدة التي ذكرها بها..

قد آنسوا لياليها المبهجة، يااااه لقد كانت طفلة صغيرة.. تذكرت كل المواقف القديمة، وجدت تفسيرًا لضيوفها السابقين أخيرًا، لم يكن أحد يلقي لأحاديث الأطفال بالاً فخيالهم خصب..

ذكرها بحوادث أخرى.. أناس رأتهم، أصوات سمعتها، إلهام حاصرها.. والكثير.. الكثير..

لم ترد حوادث إثبات أخرى، أرادت حوادثه هو.. أرادت قصة سادويل ذاته..

توقف قليلاً عن الكلام، بدأ بالالتفات يمنة ويسرة.. علامات حسرة تعلو محياه..

لم تكن بسنينه حديقة هنا ولا بيوت خدم حولها.. فكانت للقبور حرمة!!

لم يكن بالأفق إلا القصر شامخًا.. وكل ملاحقه بالجهة المقابلة المشرفة على القرية..

كانت هذه مساحة للقبور، أُحترِمَت في عهده وعهد من قبله ويبدو أنها دنست في وقت لاحق..

الحوادث الغريبة لا تكون إلا نتيجة لضيق وكدر..

تأكدت أن سعادتها هي من تسير لها حياة طبيعية فما من حادث غريب ولا كوابيس في أيام السعادة..

راجعت نفسها كثيرًا..

منعها من الاقتراب منه أكثر.. فقد يحدث ما لا يحمد عقباه.

هذا القدر هو المسموح به.. في الحركة والتصرفات أيضًا، كان الحديث فقط هو ما يُطلق العنان له..

سألته كثيرًا.. لم يجب فهو لا يعرف الكثير، هو يعرف سادويل فقط..

حاولت اكتشاف سر الأرواح منه، لم تعرف سوى أنها معلقة بالأمزجة، تحضر بطقوس مرغمة ولكنها لا تصرف إلا بإرادتها فقط.

ربما كانت لودس مؤدية للطقوس من حيث لا تدري..

ولكن سادويل لم يأتي مرغمًا.. إنها حالة استثنائية ربما!

كانت ليلة طويلة.. لم تنتهِ..

رحل سادويل في غفلة من لودس وترك استفهامات أكبر من معجزة مجيئه..

رحل وترك رهانات لودس لنفسها تتزايد.. كيف ستكون مستقبل أيامها؟

كيف ستبيت ليلتها.. وغدًا.. وبعده.. وبعده؟

احتدمت صراعات داخل جسمها النحيل، تفسيرات لمواقف سابقة.. تحليل لمشاهد حالية..

شغلتها أمور كثيرة أرادت فقط أن ترتبها جيدًا.. لتبدأ التفكير من جديد..

رتبت.. بدأت.. لم تكن على حق.. رتبت.. بدأت.. لم تكن على حق أيضًا، حاولت مرارًا، عقلها ما زال صغيرًا..

ميدون ربما يكون المنقذ.. بل سيكون..

غدًا سأصحو.. سيتلو عليَّ تفسيرًا لكل شيء..

زادت من رجاءاتها للقدر هذه المرة، أرادت أن يفعل ما يحلو لها لا له.. لمرة واحدة فقط.

عادت للفراش منهكة من ليلة لم تكن ذات نهاية.. بل هي ليالٍ..

ربما لم تبدأ لتنتهي..

بصعوبات بالغة أغمضت جفنها الأيمن.. تلاها الأيسر، تملكتها ثقة وتنزلت عليها سكينة..

ونامت.

*****

بات ميدون أكثر نشاطًا هذه الأيام..

ليس عجوزًا اليوم..

دبت به روح من شباب وازداد حيوية قلبية ظهرت بين تقاسيم وجهه المتعب قبل أن تسري على لسانيه..

نعم قد كانت لسانين.. روايةً عن لودس كانت ترى لسان حكمة وآخر لم يكن لساحر من قبله..

لم تكن بحاجة لهما في آن واحد إلا في هذا الصباح..

إنه صباح ربوعي وقع على ميلاده بالثالث من آيار..

لم تمحُ حرارة الشمس ما رسمته الليلة السابقة في جنبات ظلامها و لم تجلي خبرًا من شأنه بعثرتها..

هذا الصباح الذي تلا ليلة سادويل الغريبة.

استجمعت خيوط قصتها المبعثرة، رتبتها جيدًا لسردها، لم تنسى شيئًا، أرادت أن ترسم الموقف بكلامها تمامًا كما رسمت رواية أوزكان في خيالاتها..

نظرت في عيني كاهن القصر، بدأت بسرد ما في جعبتها..

لم يوقفها ميدون.. جعلها تستمر في تفريغ طاقاتها وتفيض بكل ما أثقل صدرها..

حكت له عن خوفها.. عن رهبتها.. إحساسها المختلط، وعن اطمئنانها لاحقًا..

حكت له عن هيبته.. شموخ نظرته.. عن أوصافه جميعًا..

أظهرت موهبة أخرى في الوصف لم تعهد عليها من قبل..

بدأت بسرد حكاية تشييد القصر؛ جلب أخشابه من الوادي والحجارة من قرب النهر، سنين الشقاء..

بدا مهتمًا لسماعها، لم يلتهِ بشيء، أعارها ذهنه قبل سمعه.

حكت عن سنين حياته بالقصر، عن الجاه والأموال.. توافد الناس، ابتدأت منذ أن سكن القصر إلى يوم أن أصبح مهجورًا بعد وفاته..

بينت له قبل ذلك كل التفاصيل التي سبقت لقاءه.. كل الطقوس غير المقصودة كما علمت لاحقًا..

بدأ بلسان الحكمة..

لم يسخر منها كسلاف عندما أخبرته مساءً ببعض ما رأته..

أخذ يهدئ منها بتدريج متقن.. ذكرها بأحلام مضت وبكوابيس كانت ديدن ليلات سابقة..

كل ما رأته وساوس نفس أرادت الغريب في أمرها..

لم يحذرها من الوحدة.. بل لم يرد لها التفكير وحدها فالأفكار من عقول مختلفة وإن كانت خاطئة.. هي جديرة بالتمعن..

تركها لتفكر في أمرها..

لن تبقى هذه الأفكار كثيرًا، الوساوس سرعان ما تبحث عن متلقٍ آخر لتتمكن منه..

دورها ينتهي بسرعة متقنة.. زعزعة في الثقة.. التفكير، يقوم العقل المغلوب على أمره بما تبقى!!

يومان مضت لم تبرح من سريرها..

كانت تحت أنظار العجوز.. تمامًا كما رسم..

صباح يوم آخر.. موعد مع لسان طغى سحره، بدأ بكلمات وجمل متفرقة.. ذكريات بالجميل.. وأخبار جديدة..

حكى لها عن تشييد القصر وتوارث أجدادها له..

نعم.. لم يذكر أن سادويل هو أحد أسماء أجدادها السابقين!

حكي لها عن التاريخ الماضي..

عن عروش مضت بهذه البقعة، فنَّد كل أكاذيب الغريب..

سرد العديد من الوقائع المثبتة، استعان بكتابه الأحمر كثيرًا..

زادت حيرتها.. وتيقنت من كذب العجوز سادويل..

بقي أن تتأكد من صدق وجوده.. وهمٌ هو أم غريب متطفل لماذا لم أقترب منه؟

يا لسوء روايته.. منذ متى الأموات يتكلمون؟!!

في الليلة الماضية صارحت أخاها ببعض ما رأته.. أرادت جس نبضه، لم تكن اطمأنت لكلام ميدون السابق، لسان الحكمة لم يرقها كثيرًا هذه المرة..

لم تذكر تفاصيل كثيرة، كانت تلقنه روايتها حرفًا حرفًا.

قراءة سريعة لملامح سلاف.. بدأت بدهشة استأثرت بكامل وجهه تلتها تعجبات كثيرة..

تلكم الملامح كانت بعض الحركات الغريبة والأصوات المريبة في أطراف الكولستان..

قد رأى الغريب بها سابقًا، الأصوات التي حكت عنها رنت في أذنه كثيرًا..

بدأت بسرد حكاية الأموات.. وبدأ بالسخرية منها..

واستمرت.. واستمر.. إلى توقفا كليهما..

علت وجهها ابتسامة سخيفة.. وانسلت..

كان ميدون يروي القصص من كتابه الأحمر، قرأ وقرأ بإسهاب ولم يختصر كالماضي أو كان الموضوع مثيرًا لاهتمامه، ظهر حماسه غريبًا هذه المرة.

انتهى من دور الكتاب هذه الليلة..

أراد أن يريها شيئًا من ملاحظاته، أجّل الأمر كثيرًا وشغلته الآن بموضوع سادويل الخرافي..

أخذ يقلب في أوراقه الصغيرة.. ليست موجودة.. لقد كانت هنا..

كانت هذا المرة الأولى التي تختلط أوراقه فقد كانت الدقة تلميذته النجيبة سابقًا..

ها قد وجدها معلقة في سترته اليمنى، تبًا للكبر فقد أفقده الكثير من حيوية ممارساته..

انتزعها برفق وخفه واختل توازنه قليلاً، سقط متاعه وتناثر في أرجاء الغرفة..

الكتاب الأحمر يتدحرج يتدحرج باحثًا عن قدم لودس..

انتزعته بخفة..

يا لشوقها له.. ولأعاجيبه.. يا ترى ما هو؟

هل فعلاً أَمسك به؟!

خشيت من ميدون أن ينهي كل شيء.. ويسترجعه..

أخذت تقلب أوراقه بسرعة..

يا للهول!

كانت مفاجأة مدوية.. كانت صفحات بيضاء فارغة!!

*****

لم يعد الصباح جميلاً كذي قبل..

فنسيمه لم يعد عليلاً، أصوات العصافير مزعجة.. الشمس حارقة.. لم تعد تداعب النافذة بضوئها الخافت..

حتى العربة أصبحت هزيلة الحركة.. لقد شاخت كثيرًا..

التذمر كان العنوان الأبرز لحياة لودس..

لم تكن في ماضٍ قريب سعيدة.. لكن هي الآن أشد تعاسة..

منغصات هنا وهناك لكن وجهها كان مضيئًا بشوشًا لا بابتسامة بل بتقاسيمه الجميلة الفاتنة..

حتمًا لم يُخلق هذا الجمال ليتعس.. ولكن هذا استثناء ربما!!

انفردت بنفسها وقراراتها مؤخرًا..

حالة هذه الأسرة.. تفككها.. المضي في سبل عديدة من الجميع.. تجبر على العزلة..

ولكن عزلة العزلة.. هي قسوة على الذات!

اعتزلت حتى عن درس الثلاثاء وكان العجوز قد حذفه من قاموسه أيضًا..

استجد الكثير، أرادت إزاحة كل الغيوم والعقبات والمضي في تكوين خط معوج يكون مسارًا لحياتها، لن يمر بكثير من الأماكن إن لم يكن معوجًا..

بدأت بتفسيرات ذاتية لكل ما حولها، نسيت كل ما اختزنه عقلها من أقوال وخبرات كانت لغيرها..

هم سلكوا دروبهم.. وستسلك دربها..

لا خبرات متبادلة ذات نفع، من طرق ودروب مختلفة كلٌّ له مذهبه وسننه..

العودة من البداية مستحيلة.. ولكنها من قررت..

وبدأت بالعودة من الأخير.

أخذت تزور الكولستان كل ليلة لا عن عادة طفولية قديمة..

بل هي عادة ستكون من الآن جديدة مختلفة الطقوس والأهداف..

تكرار ليلة مع سادويل.. كان هو الهدف الأول..

عرفت كل شيء عنه.. حقيقةً كان أو زيفًا، كانت تلك الحكايا هي بضاعته الزهيدة.

لم ترده لذاته، لقائه سيعني الكثير وسيثبت أمورًا أكثر..

لبست ذات الملابس الحمراء الفضفاضة، كررت لبسها في كل زيارات الكولستان اللاحقة..

ربما كانت إحدى الطقوس.. لا أدري.. ولكن سأدري..

الأيام لن تثبت لي بل أنا سأثبت لنفسي كل شيء..

كان منطقًا جديدًا، ربما كان جيدًا إلى حد كبير، الإصرار والاعتماد الذاتي أمرٌ محمود..

عرجت بكل الأماكن التي زارتها في أطراف الكولستان بترتيب محفوظ لم يخالف أي منها ترتيب تلك الليلة..

عبثت بنفس الوريقات.. حطمت الأغصان من الشجر ذاته.. حتى أماكن الجلوس فقد رسمت قبل الزيارة..

أعادت كل ذلك في الليلة التالية والتي تليها.. وكل الليالي التالية..

لم تيأس.. أرادت أثبات كل شيء بنفسها لنفسها..

ميلان الأغصان مع الريح.. حركات الحشرات السريعة.. أي صوت مفاجئ كان مصدر فأل لها.. يخفق قلبها فرحًا.. علها أصوات روح قادمة..

استمرت شهرًا، لم تتخلف ليلة عن الكولستان، وطقوسها الجديدة.. وملابسها الحمراء..

آخر ليلات هذا الشهر كان موعدها مع سادويل ولكن في نومها..

قد أتاها بزي مختلف.. وبأرق جلته عيناه..

لم يتكلم كثيرًا.. ودعاها إلى الكولستان فورًا.. وأشار لها إلى تلك الشجرة الضخمة..

حاولت أخذ الكثير من التفاصيل ولكن اكتفى باستخدام سبابتيه جيدًا؛ فاليمنى تشير إلى الشجرة.. والسبابة اليسرى تتوسط شفتاه النحيلتين، مشيرًا بالصمت..

استيقظت من نومها فورًا.. لم تكن فزعة.. بل كلها شوق لمرحلة جديدة..

لم تبحث عن غيرها للتفسير كالسابق.. إنها أول المرحلة الجديدة سأفسر لنفسي..

كان الحلم واضحًا لا يحتاج إلى تأويلات عدة.. لماذا هو التعقيد؟

سأنصت إلى سادويل وأذهب إلى الشجرة فورًا..

عجلات العربة تسابقها نحو الكولستان.. هي متلهفة أيضًا.. فضول الجمادات يطغى فضول البشر..

ها هي الآن أمام الشجرة العملاقة.. لا أحد..

لقد تكبدت عناء القدوم..

همت بالرحيل.. قبل أن تحرك قدماها.. صوت يملأ المكان..

إنه ينادي بصوت أجش.. لودس.. لودس.. لودس..

لم يكن الصوت مألوفًا.. لكنه شخص يعرفها، ركزت في الصوت جيدًا.. لم تميزه إطلاقًا.

رجلٌ وقور يقف خلفها.. ينظر إليها بشوق وحرقة وكأنه أراد احتضانها، لكنه كان بمسافة ليست بالبعيدة، تمامًا كما كانت مع العجوز في المرة الماضية..

فرحت فرحًا شديدًا، هاهي أولى ثمار خطها المتعرج الجديد.

فضولٌ شديد اعتراها من هذا الرجل، قد حفظ كل تضاريس جسدها، كانت عيناه تمتلئان برؤيتها..

كم انتظر هذا اليوم طويلاً..

عرف بنفسه.. إنه تنون الكبير.. جدها!!

أرادها بين أحضانه.. لا مسافات.. ولا قوانين للأرواح..

كانت في دور المستمع والمجيب أولاً.. فلقد سألها عن كل شيء بعده..

عن القصر.. الأمجاد.. العمادة.. تمجيد الناس.. اسمه..

بدا متفائلاً جدًا..

لم يصدم بعد بواقع قد حدث.. بحماقات ارتكبت ثمنها كان غاليًا..

كل ما بناه تنون الكبير وأسلافه كان الثمن.. ثمن حماقة عابرة.

سمع من الصغيرة كل شيء.. حادثة المطر.. خرق القوانين.. تهميش الدستور.. هجرة الناس.. فقر العائلة..

حكت بكل خوف وتردد، تقبل الأمر.. رجاحة عقله تؤمن بالحاضر وما فيه.. كما هو فقط..

لم يعد يسأل عن نفسه كيف أصبح، صار يحدثها عنهم وأحوالهم.. إلى ما صاروا إليه..

زودته بمختصر عن تردي حالهم من بعده، حكت عن مرض أمها.. وفاة أومود في ظروف غامضة..

كان قد عرف بوفاة ابنه في وقت مضى..

استمع لها، لم يكن يعرف أن لها إخوة؛ سادويل لم يخبره عندما استدعاه إلى هنا.. فهي ليست تربة مخصصة للعائلة.

أخبرته عن اهتماماتهم، أعجب كثيرًا بأوزكان.. رأى له مستقبلاً في أوضاع غير هذه..

تمنى لو أنه مُنِيَ بابن مثله ورزق بمن يكمل مسيرته باقتدار..

أومود.. هتون.. كنده.. لم يكن أحد منهم يعول عليه تنون الكبير كثيرًا..

الثقة لا تزرع.. المقدرات لا تعلم.. فكلاهما يخلقان مع المرء حين قدومه للدنيا.. هذا كان منطق تنون الكبير..

أخبار سلاف لم يهتم بها كثيرًا.. من حديث لودس يذكره ببلادة أومود..

لم تخبره عن نفسها.. و لم يطلب منها أيضًا..

اكتفى بحديث سادويل عنها وما استقراه خلال حديثها.. حركاتها.. وطريقة هندامها أيضًا..

قراءته للبشر لم تخب أبدًا..

أرهقها طول المكوث على الكرسي.. نزلت منه على أعشابها التي كانت مفضلة.. إنها رائعة ومريحة.. باعثة للطمأنينة أيضًا.

لم تلم في حبها سابقًا.. فقد أحببتها مرة أخرى وكتبت عن مسارها الجديد.. لودس تحب الأعشاب الطويلة..

جلست ووجهت نظرها إليه.. مدت يدها بكف موجهة للسماء.. رامزة إلى انتقال دفة الحديث إليه..

فلا بد أن بجعبته الكثير..

ابتسم وأومأ برأسه مبتسمًا.. جلس على أعشاب الكولستان هو الآخر..

وبدأ بسرد قصته.. استعرض أحداثًا مهمة.. وأخرى أقل أهمية، أمورًا أخرى لا ينبغي ذكرها.. قلبها برأسه سريعًا..

ها قد قرر.. سيبدأ حكايته من حيث انتهت..

بدأها من يوم وفاته.. يوم حزن البعض.. واستبشار الآخرين.. لكل أسبابه..

روى لها لحظات وعيه الثاني وكيف فارق حياته..

روى لها كل لحظات الثالث عشر من شباط..

١٧٥١ من الميلاد.. كان العام المفصلي، لم يكن بحسبانه.. جاء سريعًا مباغتًا كل التوقعات..

كل الخدم فزعوا لوفاته.. لم يستطع أحد الاقتراب من جناحه، لم يتجرأ أحد منهم الخوض في هذا الأمر.. لم ينههم أحد.. لكن هذا تنون الكبير!!

تناقلت الأخبار بسرعة.. بسرية.. في أنحاء جذع تنون..

تمنى لو يملك ساعة من الزمن.. سيضحي لها بسنة من سنين الطفولة أو كل سنين القحط أو بليلة أنس من الليالي الخوالي..

أراد ساعة ليمحو بها كل نساء القصر الذين فرحو بموته.. ما أحقرهم.. سيبحثون عن غيره حتمًا..

وصف لها لحظات حمله إلى التابوت.. كيف قسا ذلك الرجل على كتفه الأيسر.. تبا له.. ألا يعرف من أكون؟!!

لم يكن راضيًا على التابوت.. ولا حامليه، أراده خشبيًا مزين بحلل ذهبية، لا ذا ألوان مكسو بورود.. إنه تابوته.. ألا يحق له اختيار حلته أمام الناس..

اعتقد أن مراسم التأبين العظيمة ستكون مفخرة له.. لم يعلم بسخفها إلا اليوم..

قد خصصت لفرح الأحياء فقط.. وإنما الموتى فهم في صندوق ضيق يكاد يخنقهم..

يا للمفارقة.. يتمكن الحزن من المؤبنين.. ظواهرهم فقط، أما الموتى فيعتريهم الصمت..

لم يعد كالماضي.. أجساد تنظر إلى أجساد فابتسامة تعني الرضا، والدمعة دليل للحزن..

الآن هو روح تنظر إلى أرواح الجميع.

تفقد الحضور فردًا فردًا فالتابوت يسير بخطى متباطئة..

هذا يضمر الكره.. آخر فرح بموت الظالم.. وهذا يعد الحلل التي زينت عربة التابوت الصغيرة.. هو سارق ربما..

تلك التي كانت تنوح بأعلى صوتها.. إنها كاذبة.. يا إلهي.. ما هؤلاء المتلونون..

حتى من عهد قربهم من التجار كانوا الأشد عداوة، لماذا كل الهدايا السابقة.. والتي ستأتي أيضًا؟

المئات من الحضور الشامتون، ليتني كنت جسدًا فأغتر بدموعهم..

لم يكن إلا القليل الذين كانوا حزانى حقًا.. لا يزيدون عن أصابع اليدين عددًا.. من بينهم أهله..

اكتشف الكثير.. لكن بعد فوات الأوان.

أرادوا تكريمه.. تخليده.. راحته، أقاموا له ضريحًا لم يزد عن العشرة أقدام في ارتفاعه..

كان بقصر عظيم.. تحت يده.. رهن إشارته.. يتصرف به بما يحلو له، والآن أبدلوه بأصغر من مستودع كان للمؤن.. إنه تكريمٌ حقًا..

أربعين ليلة كانت مدة خدمته.. شرفته الشمالية كان يتناوب عليها الخدم، انقضت المدة ونسوه ربما.. انتظرهم كثيرًا.. لم يأت أحد..

كان الغضب يتملكه وهو يروي عن هذه اللحظات.. ابتسامة ملأت وجه لودس كانت كفيلة بتخفيف وطأة الأليم من الذكريات..

نفس عميق.. وتنهيدة أعمق.. أنهت الحديث مخلفةً حسرة على جبين هذا الرجل الوقور..

عرف أنها أرادت المزيد من التفاصيل.. رأى فيها فضول طفولته..

لم يرد أن يقطع استمتاعها بالحديث.. اكتسابها خبرات من حيث لا تدري فمئات السنين لن تجلب لها أكثر من ما ستحصل عليه بهذه الجلسة.

بدا واثقًا.. فهذه خلاصة خبرات متوارثة..

لم يرد الحديث أكثر عن مراحل الجفاء، تحول بالحديث مباشرة عن فترات مختلفة من الأيام المخملية..

أيام عز كانت الطيور تتغنى بها لأفراخها.. والنسمات العابرة.. حتى الشمس كانت ذات حظ لأنها تشرق دومًا على تلك الأيام..

حكى لها عن الهدايا والقربات، عن الجواري.. عن ما لذ وطاب..

حكى لها عن أطنان الأغذية الواردة للقصر.. عن الماء الذي يجلب بالدلاء على أكتاف كادحة من أسفل الوادي.. كان الماء لا ينضب..

حكى لها عن ثروات القصر التي تزيد.. وتزيد.. بل تتضخم.. ولم تنقص أبدًا..

وضح لها سذاجة الناس.. وحبهم للانقياد..

هم يملكون كل شيء.. ونحن نأخذ كل شيء ونأمرهم وننهاهم.. وكانوا سعداء..

قد فطروا وتربوا على السمع والطاعة، لم يفكر أحدٌ منهم أبدًا، هل لآل تنون فائدة لنا؟!!

سأجيب.. سأجيب عنهم بـ " لا ".. ولكنهم رضوا بالخنوع.. ونحن سعداء بلا شك.

كانت وريقات تنون الأول لها مفعول السحر.. يا لدهائه وحكمته..

وتبًّا لأومود الذي أنهى كل شيء، فلم أعد أفخر بين الأموات بشيء الآن.. أصبحت مثلهم..

كان مؤمنًا دومًا أنه لا رجل بسيط وآخر غني.. بل هناك رجل مغفل.. وآخر ذو عقل..

كيف لا يؤمن وهي من حِكَم تنون الأول؟!

جميع الخدم بلا استثناء يعلمون بمنافقة الناس لأسيادهم.. فهم أيضًا كذلك..

وجب عليهم أيضًا ما وجب على الناس.. فهي السنن الكونية.. الجميع مؤمن بكذبته الكبرى..

فهو المنقذ.. والحامي الطاهر..

دومًا هو على صواب.. لم يؤمن بأخطائه الجلية، فكل شيء مبرر هنا.. ويصبح حكمة للأزمان..

لم يشعر يوما بذنب الخطيئة.. فهو لا يعرف ما الخطيئة؟

هو من آل تنون.. هل الخطايا لأولي العقول أيضًا؟!!

شعر بها فقط بعد موته، طلب الغفران كثيرًا.. لكن الأوان قد فات..

عاود مكابرته بعد ذلك..

كان تنون الكبير زيرًا للنساء، فقط..

كان ملوثًا لمعاني العشق.. مدنسًا لطهارة الحب..

لم يحك لحفيدته من هذه الجولات شيئًا.. رغم فخره، ربما نسيها.. فقد عُهد على الأموات النسيان..

تنقل بها بين أزمنة عديدة، مراحل عمرية مضت به، أفكار شغلت ذهنه.. يا لسخافتها الآن..

فبعد الموت لم يفكر إلا بالأمور الكبرى فقط..

حكى لها عن شبابه كثيرًا.. والقليل من طفولته..

أرادت لودس تاريخًا للعائلة.. أرادت ربط الروايات واشتقاق الحقيقة بين أكوام الأكاذيب.

رغم عدم أهمية الماضي كثيرًا فالذي مضى لا يمكن استرجاعه.. لا لجسد وروح.. ولا لروح فقط..

ها هو تنون الكبير أراد ساعة فقط.. قايضها بسنين عدة ولم يستطع، ربما كان سبب العودة لا معنى له لكن المحاولة فشلت بجميع أوزانها..

لم ترد ما سطر بكتب الغرفة الصغيرة.. قرأتها كلها..

أرادت منه ما عايشه أو سمعه فقط.. لا ما قرأه.

بدأ بما سمعه عن قصر العائلة القديم.. لم يعش به.. بل سمع عن جماله وبساطته من أبيه..

كان قصرًا صغيرًا لكنه جميل حقًا.. احتضن أجداده السابقين..

بوسط جذع تنون تقريبًا كان موقع القصر، لم يكن متأكدًا من تاريخ البناء.. ولكن كان متيقنًا بأن أحد عمداء الأسرة السابقين شيده بإخلاص..

عاشوا فيه.. توارثوه.. سطرت بين جنباته أعظم القصص..

كان منبرًا لاستعباد الناس برضاهم أيضًا.. تمامًا كما هو الحال في القصر الحالي.

ثروة آل تنون هم الناس.. الناس هم ثروتهم الحقيقية، فهم من يطعمهم.. يلبسهم الحلي.. يخدمونهم بإخلاص.. يتشدقون في تقديسهم..

وزاد في القصر الجديد.. قبو الكنوز، فثروتهم الناس والقبو.. والناس من يملأونه..

لم تعهد للعائلة الثروات الطائلة كما هو الحال الآن، كانوا بأغلى الحلي.. وأفخم الأثاث.. وألذ المطاعم.. وأسياد للجميع..

كنز الذهب والفضة ليس عادة لهم فالتبذير على المظاهر كان ديدنهم..

نقل لها الأحاديث القليلة التي ورثها عن أبيه، ذلك الأب الذي يفخر بكونه جالب خزائن الأرض والمجد التليد للعائلة..

استشفت لودس الصدق من بعض الأحاديث، أرادت ليالٍ أخرى لإضافتها لقائمة الربط..

فلا أحاديث تصدق مباشرة بعد اليوم..

غيرت من وضع جلوسها.. مددت قدماها.. أخذت بلمس ركبتيها الناعمتين ذهابًا وإيابًا..

مدد قدماه أيضًا ورفع رأسه عاليًا متأملا النجوم، لحظات وأعاد نظره إلى لودس..

كان قد بحث عن القمر.. فقد عهده دومًا بين النجوم عندما كان ساكنًا بالقصر..

استعاض بقمر الأرض.. فهاهو ممدد ساقيه أمام ناظريه.

لم يستطع في السابق ملامسة القمر رغم صعوده أعلى قمة بالقصر، والآن لا يستطيع ملامسته وهو أمامه مباشرة..

تبًا لقانون الأرواح..

تشوقت لمعرفة الكثير عن هذا القصر.. يبدو أن تنون الكبير يعرف الكثير عنه..

لم تكن هذه المنطقة والتل الواقع عليه القصر معروفة عند أهالي البلدة..

كانت تنشر عنها الأساطير فقط.. تناقلوا أخبارها باستحياء.. التل كان تابعًا لقرية سويسال دومًا؛ تلك القرية التي فتك القحط بأهلها..

هُجرت.. شُرد سكانها.. تناثروا..

كانوا قلة، بعضهم سكن جذع تنون.. والآخرون بحثوا عن أرزاقهم بعيدًا..

ظل المطر منقذًا وحيدًا من الهلاك لهذه القرية الصغيرة متناثرة البيوت والمزارع..

أعوام القحط انتقت سويسال لتفتك بها بعد أن عجزت عن جذع تنون ذات المصادر المتنوعة..

فلم تكن زراعية فقط كسويسال..

سمع والد تنون الكبير خبر القصر الكبير بأعلى التل، قد تداول أخباره بعض الغرباء سرًا.. تأكد من خبره..

علم فيما بعد أن أصحابه هجروه.. بعد أن هجروا الدنيا.

لم يعد ملكًا لأحد منذ عقد من الزمن تقريبًا.. ظل مهجورًا..

"كن بعيدًا عن الناس.. يبتعد سرك معك، وكن قريبًا من قلوبهم لا من مساكنهم".. هذا من ما سطر عن تنون الأول..

كان خبر القصر يلمع في مخيلته.. رأى فيه مخرجًا جيدًا وامتثالاً لحديث الدستور المقدس..

قرر استكشافه سرًا.. فعلاً لقد صدقوا.. إنه موجود..

بُهر لضخامة القصر.. دقة بنائه، لم ير مثله من قبل.. إنه له.. هو قدره..

بدأ بتجهيز حدائق غناء في أراض جرداء كانت خلف القصر، بدأ بتشييد منازل للخدم..

احتفظ بسر القبو لنفسه.. فقد كان مليئًا بقطع تنوعت بين ذهب وفضة..

أعيد ترتيب القصر، أعدت مراسم الانتقال، جهزت كل الأمور لهذا الحدث الجلل.

خمس أعوام من تضليل أهل البلدة، أخبار بناء قصر التل على كل لسان..

كان صبورًا وقد أوهم الناس جيدًا ببنائه، جرت المراسم والاحتفالات.. وانتقلوا إلى عرشهم الجديد..

لم يهنأ بقصره..

سبعة أشهر مضت.. عمد تنون الكبير بعد وفاة والده.

*****

هذه الأيام لودس تخرج كثيرًا إلى الحقول المجاورة..

أوزكان هو من يصحبها إلى هناك، كانت تلح عليه بمرافقته في الأيام الماضية..

أرادت تعلم الجديد فهذه خبرة حياة.. أشياء لم تعلمها من قبل.. كانت تسمع بها فقط..

ركزت في كل شيء حولها..

هذه السواقي القديمة.. شبكة المياه المعقدة بها.. تلك الملابس المهترئة المعلقة على رجل خشبي، حركات الفلاحين المنتظمة.. اختلاف المحاصيل..

ربما كانت أمورًا بديهية لكل من يعمل هنا.. لكنها خبرات جديدة للودس.

رأت كل شيء بنظرة مختلفة.. باحثة عن أسرار؛ فالساقي ليس الساقي.. والمحاصيل ليس هي..

استرقت السمع للأحاديث العابرة، تعمدت عدم التركيز.. لم ترد إضفاء هوية المتحدث إلى كلامه فالمجهول سهل التقييم وأقرب للتمعن..

هذه الزيارات أضفت الكثير على خطها المتعرج..

اقتربت كثيرًا من أوزكان، أرادت متابعته جيدًا، مراقبة خطاه عن قرب..

أرادت اكتشاف مكمن إعجاب تنون الكبير به، إنَّ خلفه الكثير من الأسرار.

اكتساب كل شيء كان هدفها، فقد وزعت أيام خروجها بين الأخوين.. كل في عمله..

أوزكان.. إلى الحقول الشرقية والطواحين..

وسلاف.. إلى الحقول الغربية وقبوه..

ها قد بدأت فهم الحياة بصدق..

تذمر الأخوان من مرافقتها لهم.. اهتمامهم بها، رأوا بها حجر عثرة أمام أعمالهم، ودوا ركله..

لم يُظهر أحدهم شعوره أمامها.. كانت الابتسامات الصفراء تشق وجناتهم شقًا..

أحست بهم وبغيظهم.. لم يظهروه.. تركت لهم السنن الكونية.. وتصديق كذبتهم.. مصلحتها أعلى..

يبدو أن تنون الكبير أصبح معلمًا جيدًا.

تنوعت المدارس.. زادت الأفكار.. تباينت الآراء، لذلك أجلت القرارات..

الاختلاف أمر صحي.. مفيد للعقل.. مريح للنفس..

"لا طمأنينة برأي واحد دومًا"..

تلك العبارة رددها تنون الكبير كثيرًا.. آمنت بها واستقرت بفؤادها..

لم تتأكد من كونها له أم لتنون الأول..

لا يهم.. فقد أضافتها إلى طريقها المعوج..

لم تدع لودس عادتها الليلية في زيارة الكولستان..

إنها المنعطف الأهم.. الأكثر إثارة أيضًا.

كررت الطقوس بلا كلل.. أصبح أداء الطقوس بحد ذاته متعة وإثارة..

ليلة الأحد الماضي جاء نفس الشاب الذي تحدث سريعًا وهرب.. تمامًا كالمرة الماضية..

لم تفهم ما قاله.. كان سريعًا جدًا..

يبدو جبانًا أيضًا.. لماذا يهرب إذًن..

انتظرته في الليالي التالية.. هذه المرة أدركت قوله فقد كان تركيزها عاليًا..

كان استدعاء من تنون لها..

أراد رؤيتها في مساء ثلوثي..

فرحت.. سترى جدها مرة أخرى، لديها الكثير من الأمور لتناقشها معه، فكرت مليًا في ما قاله سابقًا، أرادت توضيحات.. وإرشادات أخرى..

انتظرت مساء الثلاثاء عند نفس الجذع.. شجرة عملاقة لم تتزحزح..

آثار الجلسة السابقة ربما لم تزل..

فوجئت بمن أمامها، لم يكن جدها!!

رجل قصير القامة.. دميم الشكل.. رث الثياب.. واقف أسفل الشجرة..

عصا غليظة لم تفارق يديه أبدًا.. بدت العصا هي من تتوكأ عليه، لم يبرح مكانه أبدًا..

بدا غريب الأطوار، نظرات عينية تنم عن ذكاء خارق أو غباء مستفحل، لا تقبل أنصافًا للحلول.. فنظرتها لم تخطئ..

ظل صامتًا إلى أن ألقت التحية.. ردها.. وعرف بنفسه..

يا للهول!!

إنه تنون الأول.. مؤسس هذه العائلة، لم تتصور أن هذه الأسطورة هي بشر مثلنا، بل هو أقبح منا حقيقةً..

بدأت تنمو في عقلها نظرية لم تنضج بعد، هي خطوط أولية.. بعد هذه المقابلة.. "البشر إما شكل.. أو عقل"..

هل ستتحدث فعلاً مع صاحب الدستور المقدس..

هذا العبقري.. المفكر، ستكون ليلة ثرية وحتمًا سيكتمل خطِّي بعد هذا اللقاء..

لم تعرف من أين ستبدأ.. وإلى أين ستصل، لم ترتب أي شيء.. تريد الكثير.. الكثير..

لقاء تنون الأول ليس حدثًا فحسب، إنه الاستثناء الدنيوي حتمًا..

أرادت تدوين كل كلمة.. كل جملة.. حتى عطساته.. لن يفوتها شيء.

صمتت احترامًا له..

بدأ بالحديث واقفًا.. لم تتبدل ملامحه و لم يتحرك من جموده أبدًا، كأنما برد الماء سيزيد مع أدنى الحركات، أو قد صُب عليه الكثير من الشمع..

أسئلة مباشرة موجهة للدودس، غلب عليها الحزم وأجوبة سريعة منها.. قد حفظت إجاباتها منذ صغرها..

السؤال عن الحال والمال.. الصحة والزمن.. الأهل والأعمال.. كانت تتلى بابتسامة، اعتادت ذلك منذ الصغر..

هي أسئلة روتينية.. لا فائدة منها إلا في تمضية الأوقات الجامدة.. لماذا الحزم؟

ربما هي خبرة قادمة.. دونتها، علها تكون قاعدة لمفاهيم أكثر شموخًا..

بدأ برفع عصاه قليلاً، تلقت الأرض بضع ضربات خفيفة منها، أخيرًا تحرك هذا الصنم..

لم تتل هذه الحركة.. إلا أسئلة أخرى..

كان السؤال الأعظم سؤاله عن نفسه.. ذكراه، كان قد افتخر كثيرًا بين الأرواح.. وما زال يفتخر، أجابت بإسهاب مفصل..

إنه تنون الأسطورة.. حروفه حكمة.. حركاته بركة.. نسماته درر.. خطاه سير يُحتذى..

قالت كل شيء قيل عنه بلا كلل، إنه تنون العظيم.. فمن لم يعظمه؟!!

أنهت فصولاً في تمجيده، لم تبالغ.. و لم يبالغ من كان قبلها، يكاد أن يكون هو مستحق الثناء الأوحد..

بدا سعيدًا لقولها.. لذكراه المجيدة.. ها هو ذو ملامح سعيدة.. إنه بشر مثلنا..

انتهى ما كان يريده، أشار بعصاه نحوها.. بعد أن جلس واطمأن في مقعده، فلتسأل لودس ما أرادت، نال ما يريده منها..

أرادت أن تعرف من هو تنون، سيكون أكثر كرمًا بسرد ما أريده بلا ريب، لا داعي لأسئلة كثيرة فقد فهم مرادها.

بدأ بسرد حياته منذ الطفولة..

لم يزد عمره عن طوله إلا القليل.. فلم يعش سوى اثنان وعشرون حولاً..

كان قصير الطول والعمر.. لكن ذكراه كانت طويلة.. ما زالت تنمو، قد تأكد من لودس بنفسه..

لم تكن حياته مليئة بالتفاصيل.. كانت ثلاث وقفات رئيسة.. طفولة وزواج ودستور، لم يكن غيرها يستحق الذكر إطلاقًا..

كان يتيما للأب.. والأم أيضًا..

عاش حياة صعبة.. لم تكن سهلة وميسرة إطلاقًا، عاش في كنف جار لهم، كان عجوزًا بما يكفي.. طيب القلب.. وقاس أيضًا..

تربى في ذلك البيت الصغير.. هو.. وشجرة توت.. وعجوز وحيد..

لقد كان العجوز مقربًا من والد الطفل وحاملاً أسراره..

لم يكن بطفولته شيء يستحق التذكر سوى الأرجوحة الصدئة.. ودروس التعليم الأسبوعية..

بضع أطباق تذكرها.. ولم يكن طعمها مميزًا..

فعلا لا تستحق الذكر..

قد تعلم القراءة والكتابة جيدًا.. كان العجوز معلمه المخلص..

كبر الطفل سريعًا.. فقد تعدى الخامسة عشر سريعًا..

في سن السادسة عشر تزوج بسيما.. ورزق بشايلان بعدها بعام تقريبًا..

كانت سيما منتقاة جيدًا، لم تكبره بالسن.. ولم تكن قبيحة أيضًا..

حب العجوز لوالدها له دور كبير في انتقائها ربما..

سيما.. تنون.. بضع نفر.. وذلك العجوز.. سموها حفل زفاف فيما بعد..

أيام متشابهة كثيرًا..

كانت كل سنة تمر.. يكبر تنون و شايلان وسيما.. ويكبر حلمهم، كانت أحلامًا بسيطة.. وظلت أحلام..

كانت أملاً للحياة.. وأحلامًا لتبديد طولها..

كسرت الأرجوحة.. وظل الدرس الأسبوعي مستمرًا..

ما زال يكبر..

هو في ربيعه الثاني والعشرون الآن..

قد وعده العجوز كثيرًا بإعطائه ثروات أبيه..

انتظر علامات قادمة، راودته بمناماته كثيرًا..

صيف قادم.. سحاب ممطر.. ليل دامس.. إنه هو..

كان يومًا مشهودًا..

اصطحبه إلى غرفة صغيرة، العجوز.. تنون.. كان القنديل القديم ثالثهما..

ذلك القنديل ذو الضوء الخافت.. قد لا يحتاجون غيره..

رأى أبوه دومًا في طفله ملكًا عظيمًا ذا عروش تهتز لها أركان الأرض الثلاث..

أراد تهيئته لهذا الشرف.. ولكن الطعنة بذلك الخنجر النحاسي كانت أسرع..

تركه طفلاً..

ورّثه صندوقًا ذهبيًا كان محفوظًا عند صديق مقرب له..

تنون كان محظوظًا.. فلقد ترعرع في بيت حامل الصندوق..

أخرج الصندوق.. تردد تنون في فتحه كثيرًا، أخذ العجوز يتلو عليه الكثير من الترانيم المختلفة.. لقد كانت تنزع الخوف آنذاك..

دفتر قديم بداخل الصندوق.. كان العجوز قد أمر تنون بتدوين كل ما سيقرأه عليه من كلام كان لأبيه..

كان قد كتبه العجوز سابقًا.. فالزمن كفيل بمسح ما لم يحفظه الورق..

منذ طفولته كان يُهيأ لهذا اليوم فقد كان الثلاثاء موعدًا لدروس التعليم.. ها هو اليوم مستعد..

أخرج كتابًا ذو غلاف أحمر جلدي.. وبدأ العجوز ميدون بالقراءة..

نعم لقد كان ميدون!!

ميدون.. ميدون.. يااااه كم هو مخلص لدروسه الأسبوعية..

الكثير من الصفحات كتبت في أيام متتالية، ميدون كان يقرأ وتنون يدون..

بعد عام من انتهائه من الكتابة من رغبات أبيه، وما عرف بالدستور لاحقًا.. تلقى خنجرًا نحاسيًا مجهولاً تمامًا كأبيه، كل عام يمضي بعد موته يأتي من يمجده أكثر.. يعظمه.. يزداد لمعانًا وشعبية..

يبدو أن الحمقى بازدياد..

فعلاً لقد عاش ذليلاً.. ومات عظيمًا.. وما زال للعظمة أكثر..

لم يعهد أن أحدًا فرح بموته أكثر من تنون.. يا لسعادته!!

لودس.. تعودت تلقي الصدمات، استقبلت القصة بهدوء..

الصدمة.. المفاجأة.. الدهشة.. أيًا كان المسمى تفقد التركيز..

آثرت التركيز على غيره..

دفن سر عظمة تنون مع جسده..

لم يعرف شيء عنه.. تنون هو الدستور.. والدستور كان تنونا..

هذا هو المؤكد.. كانت البقية اجتهادات لأجيال توالت..

فقد جعلوا من عمره ألفًا.. قلدوه خزائن الأرض.. جعلوا منه ملكًا لعروش الأرض الثلاث..

مع ازدياد الأجيال.. تزداد الشائعات.. وعظمته بلا شك..

اختار القدر لودس دون غيرها، كانت أول من يطلع على سر تنون الأعظم..

لم يكن مُضي السنين عائقًا أمام حقيقة كهذه..

تلك الكذبة الكبرى..

يا ترى.. هل هي من كشفت ذلك.. أم الأيام؟

أمور وتوقعات مريبة.. وحقائق أكثر حيرة..

أرادت أجوبة قطعية.. لا رجعة بها، رغم أن الأيام أثبتت أن لا أجوبة قطعية..

لابد من وجودها، لولاها لكان الكون بلا قيمة.. ستثبت ذلك.. لها.. وللأيام..

احتاجت مراجعة سريعة لخطها.. ستكون الأيام القادمة أشد حزمًا من نظرات تنون السابقة..

قبل ساعات قليلة.. وعند رؤية تنون العظيم.. انتابها شعور بأن هذه الليلة ستحفل بالكثير، ستكون نهاية لكل السابق..ستبدأ حياتها فورًا بعد لقاءه..

ولكن الآن عادت لنقطة لم تبعد عن الأرض كثيرًا..

سيئة هذه الليلة.. ولكن الجميل أن مساحات التفكير وسعت وركزت في صوب أحادي..

قامت لودس من أمامه.. قد نفضت ثيابها من ما علق به من أتربة.. وأكاذيب..

تركت له أعشابًا طالما أحبتها، وأغصانًا يبست من شمس ساخطة وتركت له كل الخيبات..

ذهبت لفراشها الأخضر.. لم تغيره من طفولتها..

انتظرت الصباح طويلاً.. نامت عميقًا بجسدها، ورجعت الأحلام خائبة بتلك الليلة، لم تجد بفكرها فراغًا لها.. كانت مشغولة بغيرها..

كان فكرها منصب نحو صاحب المفاتيح وحامل أسرار والد تنون.. ستذهب له غدًا..

لأول مرة تتجهز للقاء ميدون.. كانت العفوية ما يميز لقاءاتهم سابقًا..

ضوء الشمس كان هزيلاً هذا الصباح، كانت مرهقة من أمسها الشاق.. أشعتها لم تغمر الغرفة كعادتها..

تسللت باستحياء.. ترددت كثيرًا قبل الولوج من نافذتها الشرقية.. فلودس لم تنم جيدًا..

سابقت لودس نفسها في الاستيقاظ.. لم تكن عربتها عائقًا أمام الوسائد المتناثرة ولا السجاد المجعد في هذه الصالة..

باب غرفة العجوز مشرع على مصراعيه..

نظرة داخلة.. تؤكد انتظاره لها على أريكته البيضاء، كوب من القهوة بانتظارها.. وكعك زين أطرافه بفواكه مجففة..

استقبلها بابتسامة حافلة.. تصور البراءة التي اكتسبها عبر الأجيال..

لم تستطع الصبر حتى الدخول.. الكثير من الأحاديث بجعبتها.. بدأت بالكلام قبل دخولها..

أشار لها ببروده المعهود إلى الطاولة الصغيرة.. طلب منها الهدوء، بضع رشفات من الكوب الخزفي أدت المهمة بنجاح..

قرأ كل الأحاديث المرسومة على تعابير وجهها، عرف ما تريد..

وبدأ الحديث..

عرف أنها أرادت معرفة دور ذلك التنون..

ما قرأته من تاريخ مدون.. تلك المتناقضات.. مات تنون الأول.. اثنان وعشرون عامًا قضاها بلا شيء..

ما أساس العائلة.. عميدها.. منشأ تلك المكانة..

اختصر المقدمات كثيرًا.. وبدأ كلامه بقصة شايلان، فقد كان العميد الثاني بعد تنون الأول.. هذا ما خلده التاريخ..

لم يحك نشأته تحت عينيه.. تربية الدلال الحازمة، ولا عن تجهيزه لعروش قادمة..

لم يحك عن طفولة شقية.. ولا مراهقة كان الطيش عنوانًا لها، ولا عن مرحلة زواجين فاشلين وأعقبهما بزواج مبهر نتائجه..

لم تكن التفاصيل حاضرة، أراد روية فؤاد لودس بالحقيقة.. لن تصدقها.. ستبحث وتبحث، ستعود للعجوز مرة أخرى.. وستصدقها حتمًا..

بدأ شايلان بالسير على خطى الدستور، كانت خطاه واضحة.. جريئة.. وسابقة لأزمان كثيرة..

أراد تنون لابنه مجدًا عظيمًا.. وعرشًا مخلدًا، فقد أرهقه تأليف تلكم الصفحات، أفنى عمره القصير في التشريع، خصصها لعرش قادم لابنه.. كانت تلكم رواية ميدون للابن..

اقتنع الابن بعظمة أبيه.. سيقنع من بعده حتمًا..

شايلان كان صراطه ذلك الدستور.. لم يحد عنه.. فقداسة أبيه سارية حتى بعد موته..

بلغ الآفاق سريعًا..

تلك الوريقات ذللت كل الصعوبات، تجاوزت أعظم العقبات..

تعمد الخطأ كثيرًا.. ليجد الحل بين يده..

شرح للودس موقف شايلان جيدًا.. وأفاض الحديث، فحديث الذكريات ذا رونق جذاب..

لم يزل الكوب يحظى ببعض السخونة.. توقف عن الكلام لتكمل قهوتها..

سبق عتابها باعتذارات لطيفة، كادت الجلسة أن تخلو من صوتها الرقيق.. لا يهم مادام الهدف موصول..

لم يرد أن يحصل كل هذا..

أراد لها حياة طبيعية.. حياة سعيدة.. توقف مسيرات من التعاسة لهذه العائلة..

حرص كثيرًا على إسعادها.. فالكدر كان شررًا تبعته هذه الحرائق المتوالية..

تبًا لهذا الكدر الذي جاء بكل هذه الحوادث وأفقد العجوز كثيرًا من طقوسه..

تبًا له!!

*****

الأيام الماضية.. حوادثها.. كانت ثقيلة على جسد لودس المرهق..

ولم تبادرهم بالحديث، أرادت روحًا واحدة.. أرادت أومود..

وجه مألوف بين تلك الأشجار.. ذهبت إليه مسرعة.. تأملته جيدًا..

تأملت انحناءة ظهره الطفيفة.. تقاسيم وجهه.. جسده النحيل.. ولحيته الصغيرة..

إنه هو حتمًا.. إنه دوندار جدها السابع، فعلاً إنه كأخيها تمامًا..

تشوقت لمحادثته.. كانت قد عرفت عنه الكثير، بادرته التحية.. وتبادلا الحديث..

فعلاً كانت خشونة صوته كسلاف.. وكان حرف الراء عسيرًا عليه أيضًا..

كان وصف العجوز دقيقًا..

بادرته بسؤال عن هجرة الناس.. تجهيز العربات.. حوادث المنحدر.. وعمارهم لتلك الأرض البور لتكون جذع تنون فيما بعد..

أعجبت بهذا الفصل من القصة عند الصغر.. فقد كان حماس ميدون في وصف الحادثة مثيرًا..

قرأته كثيرًا.. وأرادت المزيد..

قطب عن حاجبيه مستغربًا كل ما ترويه، ربما لم تعلم عن هروبه ذليلاً صاغرًا..

لم تكن تعلم أيضًا عن جبروته بأهل سدر..

استعبد الناس بحق.. طغى وتجبر.. كانت طاعة الناس له جبرًا..

لم يمر بتاريخ العائلة أسوأ منه، كان نقطة سوداء في تاريخهم الناصع.. ظاهرًا..

لا عقبات لديه.. ولا موانع ومحددات، أهان الناس.. واسم عائلتهم الطاهر.. ودستورهم المقدس..

ورث العمادة عن عمه.. وورث الناس أيضًا..

انتظر دوره في المسرحية الكبرى طويلاً فقد عاش عمه دهورًا كثيرة..

كان يرى في الدستور نفاقًا ظاهرًا لا فائدة منه، كان قويًا والناس والدستور ضعفاء.. وجبناء أيضًا..

أوامره مطاعة كسابقيه، كانت برضا ووفاق.. صارت خوفًا ونفاق.. لا يهم فالنتيجة هي الأهم..

بدأ بتسطير دستوره الخاص، لم يسطر على ورق.. بل كان ارتجاليًا من إحساسه الدموي..

اعتبر الناس دوما كجلود نعليه.. يفصلهم كيفما شاء ويسعى بهم لراحته.. حمايته من أشواك ترصدت لأذيته، ويطأ عليهم في نهاية الأمر..

فعلاً كان المترصدون له مجرد أشواك.. لا ترتقي لتكون ندًا، وكان يصادم الناس بالناس ودومًا ينال مراده..

لم يكن لأهل سدر طعام رديء.. إلا في أيام هذا المتعجرف..

دوندار.. من حوله.. بعض المقربين وجلاديه.. هم من ينعمون بالطعام الفاخر وأنواع المآكل والمشارب..

تضاربت الروايات عن أحداث قتل خفية حصلت لكارهيه.. هو منها بريء..

سنين مضت.. خنوع الناس عنوانها الأبرز، كانوا يتذمرن بشدة في دواخل صدورهم.. وكانت الشكاوى تنتقل سرًا.. خوفًا من جلادي دوندار..

تقادُم السنين زادتهم ذلة.. وزادته مكانة وغنى، بات غارقًا في نعيمه.. وشهواته الحيوانية..

بات الغضب يتملكه هذه الشهور.. فقد قلت الإمدادات.. وبدأ العصيان، تمرُّد على الطاعة من فئات قليلة.. يا لهم من أوغاد..!

عاد لبطشه .. فقد عاشوا سنينهم الأخيرة على أطلال بطش قديم.. ها قد عاد الآن..

فُرضت العقوبات على الجميع.. وزاد حماقة على حماقاته السابقة..

كانت خطيئة لم تغتفر.. وقشة قصمت ظهر بعير أهوج..

ازداد العصيان.. وعم الغضب.. كان الناس يشجع بعضهم بعضًا.. إنها ثورة للجياع..

كان جلادوه أول من تخلى عنه.. كل المقربين.. حتى الخدم، لم يعد رهانًا رابحًا..

"خذ كل ما يملكون.. إلا طعامهم".. كانت هذه إحدى عبارات دستور المغفلين.. بل كان هو المغفل..

لم يملك سوى الهرب..

كانت بلدة جذع هي محطه الجديد.. لا أحد يعرفه هنا.. بيئة صالحة للبداية..

بات شايلان آخر.. فقد بدأ مجدًا جديدًا من هنا.. من جذع.. بل هي جذع تنون..

قد عرف قداسة الدستور الآن، حتى كلامه العابر إن لم يوافق ما سطر هنا.. فسيأثر الصمت..

كانت الخطوات واضحة لمجد جديد.. قد كفل الدستور ذلك، كما كفل لشايلان مجده السابق..

"كن غنيًا فقط.. يحبك الناس"، كان تنون محقًا في قوله..

عاد مجد آل تنون.. وعاد دوندار كما أراد أجداده، والناس لم تعد تدعو بلدتهم إلا بجذع تنون..

كان ميدون اعترف في لقاء لودس بتزييف بعض أجزاء التاريخ.. لضمان استمرار أمجاد العائلة..

لم تكن بعض.. بل أغلبه.. عُدل وزُيف ليبقى تنون الأول عظيمًا..

ربما عُدل على أوراق الدستور.. من يعلم.. لم يعترف بذلك ولكن لا شيء سيمنعه بالتأكيد..

من كتب الدستور في الأصل؟!!

لم تكن تريد إجابة لا وجود لها، البحث سيفتح أبوابًا من الأكاذيب المتوالية.. لن تنتهي.. ولن تأتي الحقيقة..

فعلاً نعيش بكذبة كبرى..

بحثت لودس بين الوجوه مرة أخرى.. انقضت الليلة و لم تغنم بأومود..

كانت زحمة الوجوه في كل الليالي المتوالية، أسبوعان من البحث بين أكوام الأرواحِ المنتشرة في الكولستان، لم تتكرر الوجوه أبدًا.. و لم تجد مرادها أيضًا..

لجأت للعجوز في طلبٍ ربما كان الأخير.. كان يعلم كل شيء.. كيف لا يعرف أمرًا بسيطًا كهذا..

تردد كثيرًا قبل إجابتها.. لم يكن موقنًا من جدوى إخبارها فهو لا يعرف الخبر اليقين..

أكد لها أنها لن تجده في الكولستان.. فهو مكان قبره..

لم ينطق بكلمات أخرى.. خرج من غرفته مسرعًا..

" لا تسبق أحدًا مطلقًا ".. " لا تسبق أحدًا مطلقا ".. " لا تسبق أحدًا مطلقًا "

تذكرتها فجأة.. و لم تعلم معنى لها أيضًا، قاستها بمواقف سابقة.. بالمواقف الأغرب.. لم تجد تفسيرًا أيضًا..

لم تعد تهتم بتفسيراتها.. ستطبقها من الآن.. ربما تفلح..

لم تسبق ميدون في يقين وجوده خارج الكولستان.. إنها فرصة.. هو من بادر..

أرادت لودس منذ فترة تأكيد شكوكها بوجود أومود في قبوه، لا أدلة.. ولكن هو إحساس عابر، ولغرابة سابق الأيام دور أيضًا..

نامت هذه الليلة باطمئنان.. هدوء وسكينة.. كان فراشها مريحًا على غير عادته..

لم تنعم بأحلام جميلة منذ زمن.. كانت أحلامًا تبعث على تفاؤل مفرط..

استيقظت على صوت إشراق الصباح.. سابقت الشمس على النهوض.. شعشع نورهما..

باتت اليوم بأزهى حلل كانت لها.. ستقابل أباها..

فكرت كثيرًا ماذا تريد منه، لم تكن المحبة كافية لشوقها له اليوم.. هل كان يحبها فعلاً؟

أرادت احتضانه..

رغمًا عن قانون الأرواح الجبري.. ستكسره، هو من وحي أخيلتهم.. لن يحصل شيء..

أرادت سؤاله عن منحوتاته.. وستخص الأخيرة..

أرادت فهم معناها.. دلائلها.. رمزية موادها..

ما هي الأشكال المختلفة التي توسطت الغرباء عديمو الملامح، ستسأله أيضًا ما بال أطرافهم المنهكة.. وقد نالها ذلك الانصهار..

كثيرة هي الأسئلة..

لم يحن المساء إلا وهي في قبو أومود.. كانت سعادتها قلبية، ازداد خفقان قلبها مع كل نزول طفيف على ذلك المنحدر..

عندما واجهت الأسينة السوداء الأولى تذكرت..

كان الكدر أولى الطقوس.. هي فرحة الآن.. هل ستراه حقًا..

تأملت المنحوتات ببطء.. باتت وكأنها تراها للمرة الأولى!!

الكثير منها أصبح مفهومًا.. تستطيع حتى محادثتها.. إن تخلت الأسينات عن جمادتها..

يا لروعتها، التفتت سريعًا لترى آخر هذا السرداب.. ما من أحد..

عادت لتفقد معشوقات أبيها.. صوت وقع أقدام على الأرضية الخشبية..

إنه أومود.. فعلاً إنه هو.. توجهت نحوه..

احتضنته بشدة..

لم يتغير شيء.. فالاقتراب كان وهمًا سطرته الأرواح على نفسها..

حدثته كثيرًا.. حدثته بسرعة.. وكأنما حددت بوقت ضيق للكلام، لا تعلم من أين أتت بكل تلك الكلمات!!

ظل صامتًا.. تأملها كثيرًا، بدأ بالحديث بعد أن أبعدها عن ساعديه قليلاً..

ظل يكرر جمل اعتذار سمعتها مسبقًا..

نعم.. تذكرتها.. إنها العبارات التي طمس الكثير منها، لقد كتبت أسفل من الأسينة العملاقة..

لا يملك سوى الاعتذار.. ليس بيده شيء.. لم يحاول جهده في الماضي ولكن يرجو مغفرتهم الآن..

مغفرة لودس.. وكل العائلة أيضًا..

كانت اعتذاراته عن عدم إنقاذهم من غرق مركبهم في النهر..

قد ندم كثيرًا بعد موتهم..

*****

للتواصل مع المؤلف

Email : a_albrkati@live.com

Twitter : @a_albrkati



بزمن اللا مكان تواجدوا.. هم
التنونيون ذاتهم.. أخذوا زمانهم
وأزمان قد كتبت لغيرهم ربما..
تحيط بهم السرية.. الغموض
حارسهم المخلص.. حتى الكبرياء
اقتبس منهم الكثير.. فهم منبع
الإخلاص واللؤم معًا..
هذا القصر احتوى الكثير..
والكثير.. من ما لن يفهمه تنون
الأول لو كان حيًّا الآن..
عيوب اجتمعت بهم وبزمانهم..
اقتسموها بالعدل.. ولم يخذل
أحد منهم الآخر..
طقوسهم تجلت.. وبعض من
أمورهم بوريقات هنا أيضًا..

تصميم الغلاف/عبد الرحمن الصواف

